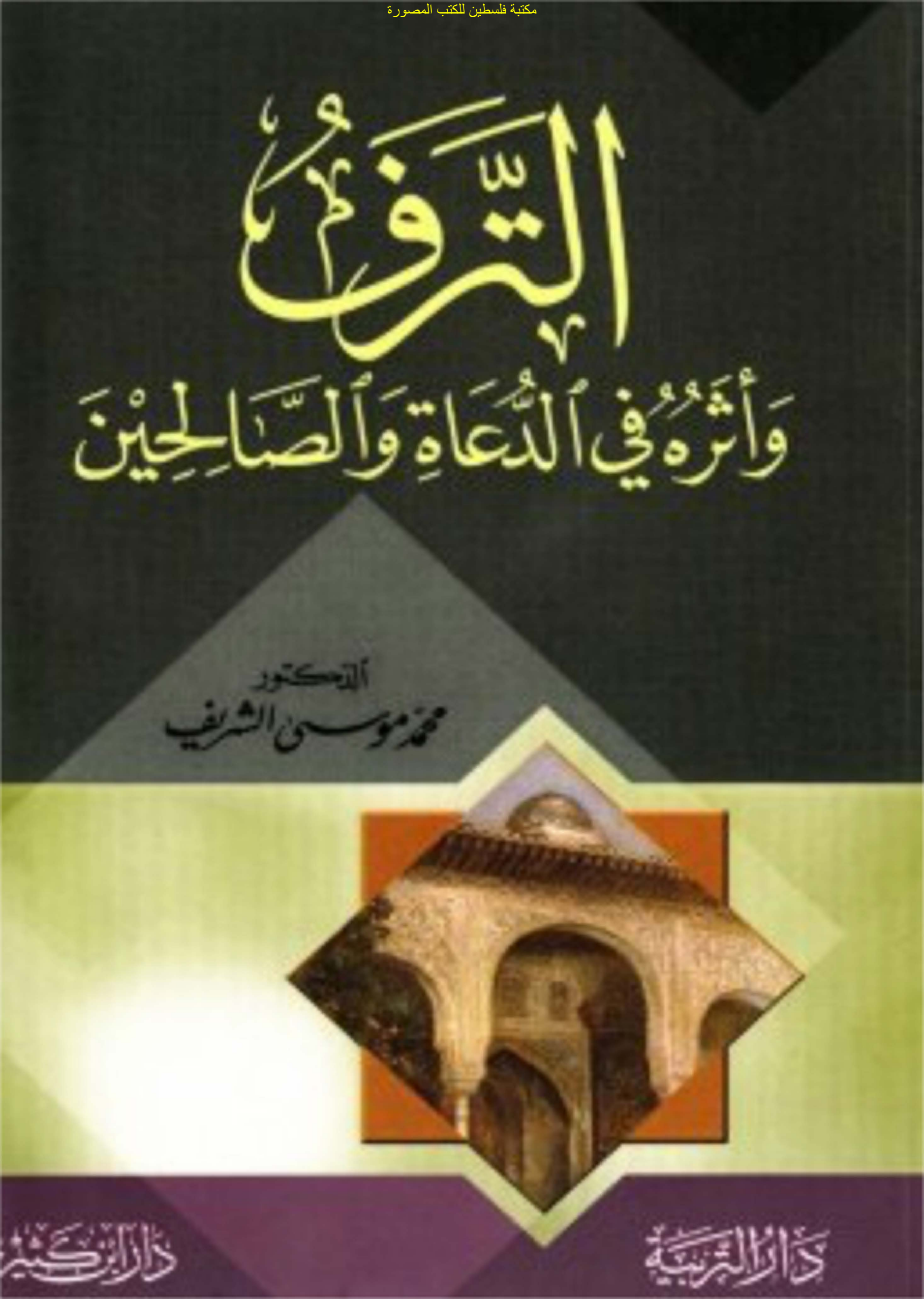


التَّرَفُ
وَأَثَرُهُ فِي الدُّعَاةِ وَالصَّالِحِينَ
الدكتور
محمد موسى الشريف
دار التربية
دار ابن كثير

الترف
وأثره في الدعاة والصالحين

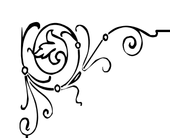
الطبعة
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

الترف

وأثره في الدعاة والصالحين

الدكتور

محمد موسى الشريف



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتۡرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

وقال الشاعر:

ليس المروءة أن تبيت منعماً
وتظل معتكفاً على الأقداح
ما للرجال وللتنعم إنما
خلقوا ليوم كريهةٍ وكفاح



مقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الترف داء عُضال، ومرض مهلك، إن استشرى في أمة ذهب بعزمها، وأورثها تباطؤاً وخمولاً، وكسلاً ودَعَة، وعلقها بالحياة الدنيا وحببها إليها، والترف إن التصق بشخص ما حتى صار يوصف به كان ذلك إيذاناً بضعفه، وإعلاماً بوهنه، ودليلاً على تراخي شأنه، وعدم ضبطه أمرَه، وأنه آثر لذائذ الحياة على الجد والاجتهاد، واستبدل بالقوة والدأب الضعف والإخلاد، حتى صار في الحياة أشبه بسقط المتاع، لا يأتي بعمل نافع ولا يُرتجى منه ارتفاع.

هذا هو الترف وما يجره على العامة، لكن كيف هو إن صار علامة على عدد من الصالحين وشارة لبعض الدعاة والمتصدرين، هنا يعظم الخطب ويستشري الفساد، وكلما اتسعت دائرته فيهم، واستوعب منهم رهطاً إثر رهط، وعصبة تِلْوَ عصبة، قلّ الرجاء في الإصلاح، وانقطع حبل الأمل في الفلاح، ليس هذا مبالغة بل هو عين الصواب، وهذا ما خبرته ووقفت عليه من أحوال الأمم وواقع الناس، منذ العصور الغابرة إلى العصر الحاضر؛ قراءةً واطلاعاً ومخالطة.

وهذه الرسالة موجهة لعموم المسلمين في كل مكان، لكنها تتناول الذين يعيشون في البيئات الغنية المترفة تناولاً أوليّاً؛ وذلك لأن للبيئة الغنية المترفة أثراً كبيراً في خمول عدد من الدعاة، ورضاهم بالقليل من الجد، وإيثارهم الراحة والدَّعَة على العمل والاجتهاد، والإنسان ابن بيئته، لا يكاد يستطيع التخلص من إسارها إلا قليلاً، والملاحظ المتابع للناتج الإبداعي في المجالات المتعددة: الفكرية، والثقافية، والاجتماعية، والطبيعية، والعلمية التقنية، والعلمية النظرية، وغير ذلك من مجالات الحياة المتنوعة، من يتابع هذا الإنتاج الإبداعي يجد أنه متحقق في البيئات الجادة العاملة بنسبة أكبر بكثير من تحققه في البيئات المترفة الخاملة، التي لا تكاد تلتفت إلا إلى حاجاتها الخاصة وتحقيق شهواتها ومتطلباتها، والدعوة ليست مستثناة مما ذكرت، بل لعل تأثرها بالبيئة أكبر من تأثر سائر المجالات التي ذكرتها بها؛ وذلك لأن الدعوة تجمع بين الجهد العملي الجسدي وبين الجهود الأخرى المتنوعة؛ كالثقافي، والفكري، والاجتماعي، فعلى الذين يعيشون في البيئات الغنية المترفة أن يستقبلوا هذا الكتاب بعناية، ويلتفتوا إليه الالتفات اللائق؛ وذلك لأنه يخاطبهم خطاباً هم أولى الناس به، وأقدرهم على تحسسه ومعرفته، وهم أكثر الناس معاناة من هذا الترف وأشدهم تأثراً منه وبه.

والناظر المتابع يدرك بوضوح الفارق بين الدعوة الإسلامية في البيئات الجادة المتوسطة الثراء أو التي هي للفقر أقرب، وبين الدعوة في البيئات المترفة الخاملة، لا يحتاج إدراك ذلك إلى كبير عناء أو مزيد بحث واستدلال، ولعل المتابع لما في هذه الرسالة يظفر بتصور واضح لما أريد بثه من هَمٍّ أو كشفه من غم.

وبعد، فالرسالة التي كتبتها هي تذكير للمبتدي، وتبصير للمنتهي، وتحذير للسادر في شهواته الغوي، وعبرة وعظة للمقتدي المؤتسي، عسى أن ينفع الله بها ويكتب لها القبول، ويثيبني عليها من فضله ما هو المرجو المأمول، والله الموفق[١].

وكتبه

محمد موسى الشريف

البريد الإلكتروني: com.mmalshareef@yahoo

الموقع على الشبكة: www.altareekh.com

(١) أرجو من الإخوة والأخوات أن يضموا هذه الرسالة إلى أربع رسائل أخرى؛ حتى تكتمل لهم الفائدة؛ وهي: الهمة طريق إلى القمة، وعجز الثقات، وظاهرة التهاون في المواعيد، والثبات، وكلها تدور في فلك واحد.

المبحث الأول
معنى الترف وعلاقته
بالغنى والسَّرَف

معنى الترف:

جاء في معجم «تاج العروس»: (ت ر ف):

التُّرْفة: النعمة وسعة العيش.

وكفَرِح ـ أي تَرِف ـ: تَنَعَّم.

وأترفته النعمة وسعة العيش: أطغته.

وقيل: أترفته: نَعَّمته، ومنه قوله تعالى: ﴿مَآ أُتۡرِفُواْ﴾ [هود: ١١٦]؛ أي: ما نُعِّموا.

وإنما سُمي المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها مترفاً؛ لأنه مطلق له، لا يُمنع من تنعمه.

وجاء في «لسان العرب»: (ت ر ف):

الترف: التنعيم.

وصبي مُتْرَف: إذا كان مُنَعَّمَ البدن، مدللاً.

والمترف: الذي قد أبطرته النعمة[١] وسعة العيش.

وجاء في «معجم مقاييس اللغة»: (ت ر ف):

يقال: رجل مُترف منعم، وتَرَّفه أهله: إذا أنعموه بالطعام الطيب والشيء يُخَصُّ به.

إذاً يدور معنى الترف على التنعم وسعة العيش، والتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها، وقد يؤدي كل ذلك إلى الطغيان وعدم شكر النعم.

العلاقة بين الترف والغنى:

الغنى ليس متعلقاً بالترف ضرورة؛ أي أن الغنى قد يؤدي إلى الترف ويسوق إليه، لكن ليس ذلك حتماً؛ فكم من غني شاكر بعيد عن الترف مترفع عنه، فالغنى مرتبة اقتصادية تشير إلى حجم الثروة التي يملكها فرد من الناس، ولكنها لا تقف عند مجرد الرقم الحسابي بل تترك آثاراً معينة في نفس الغنيِّ وفي سلوكه، وتظهر في المجتمع أخلاقاً وسياسة وقانوناً، متميزة عما عند عامة الناس وجمهرتهم[٢].

لكن بعض الناس يترفع عن التأثر السلبي بالثروة، ويتخلق بأخلاق الصالحين ويتصف بصفاتهم.

«أما الترف فيبدو أنه صفة زائدة على الغنى، حيث يفهم من تجاوز المصرف المعتاد في إشباع الحاجة ليصل إلى حد التبذير والإسراف، ويظهر بذخاً في الثياب والطعام وأداة الركوب والمسكن مثلما هو المألوف من حال المترفين، بينما بإمكان هذا الغني ـ مع ثروته الطائلة

---

(١) البطر: الطغيان عند النعمة وطول الغنى، وبطر النعمة: لم يشكرها. انظر: «لسان العرب»: (ب ط ر).

(٢) انظر: الترف في المنظار القرآني (٥٠).

ـ أن يقتصر في مصرفه على المعتاد دون أن يُفرط في إشباع حاجاته، فالترف صفة أخلاقية مرذولة تضاف إلى الغنى، ومن الممكن أن يكون الإنسان غنيّاً ولا يكون مترفاً»(١).

«والفقه الإسلامي لم يُدِنِ الغنى، بل سمح به، وشرع له ما يضمن عدم إساءة استخدامه، فالمال متاع وزينة، ولكنه ضرورة أيضاً حسب موازين العيش، ووسيلة من وسائل الجهاد في سبيل الله تعالى، ويكون زينة عند زيادته عن سد الحاجة الضرورية»(٢).

والإسلام العظيم ربى شخصية المسلم على طريقة تمنع من تحول الثروة إلى أداة سيطرة وحكم يستبد من خلالها الأغنياء بعامة الناس، وبذلك يكون الغنى مهما فحش مرتبة مقبولة في الاقتصاد الإسلامي، شرطَ أداء الحق الواجب، والإنفاق في سبيل الله، والأخلاق الحميدة، والحكم الصالح، وهذا سياج محكم يمنع الغنى أن يتحول إلى ترف وأداة فساد(٣).

وفي الأغنياء من هم صالحون بعيدون عن الترف، لكنهم قلة، أما الكثرة فقد رتعت طويلاً، وفسقت كثيراً، وأُترفت حتى الثُّمالة، وهذا مشاهد معلوم.

العلاقة بين الترف والإسراف:

العلاقة بين الترف والإسراف علاقة وثيقة مترابطة، فالسَّرَف هو أول ظواهر الترف، وإن شئت قلت: الترف هو أول علامة على الإسراف،

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق (٥١).
(٣) المصدر السابق.

وهو مجاوزة الحد الأوسط، والانحدار سريعاً إلى الطرف الأخير أو الطرف الذي يسمى غلوّاً وإفراطاً، والإسراف يجر حتماً إلى الترف، وهو من الأخلاق التي تنهار معها أخلاق الفرد وأخلاق المجتمع(١).

وقد قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقد قال النبي ﷺ: «**كلوا واشربوا، وتصدقوا، والبسوا في غير مَخِيلَة، ولا تسرفوا**»(٢).

وقال الأستاذ أبو زهرة(٣) ـ رحمه الله تعالى ـ:

«هذا الحديث يبين لنا حدود الترف وحدود الحلال، فحيث كان السرف وكانت المخيلة كان الترف، وحيث كانت الحدود مرعية في طلب زينة الحياة الدنيا وطعامها من غير سرف ولا مخيلة يكون الحلال».

ثم الترف يؤدي إلى الإسراف، والإسراف يؤدي إلى ضياع الحقوق؛ ولذلك يقول سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «ما من سَرَف إلا ومعه حق مضيع»(٤).

---

(١) خلق ودين: د. إبراهيم سلامة (١٥٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الأطعمة، باب إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

(٣) **محمد بن أحمد أبو زهرة**: أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره، ولد في المحلة الكبرى سنة ١٣١٦هـ، وتعلم بمدرسة القضاء الشرعي، ثم تولى التدريس في أماكن مختلفة، وترقى إلى أن عين أستاذاً محاضراً للدراسات العليا في الجامعة، ثم وكيلاً لكلية الحقوق جامعة القاهرة، ووكيلاً لمعهد الدراسات الإسلامية، له أكثر من أربعين مؤلفاً، توفي بالقاهرة سنة ١٣٩٤هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ٦/ ٢٥، ٢٦.

(٤) مجلة لواء الإسلام، العدد السادس: ٣٨٢، ٣٨٦.

المبحث الثاني
ذكر بعض ما جاء عن الترف
في الكتاب والسنة والآثار

جاء ذكر الترف والمترفين مراراً في كتاب الله تبارك وتعالى، وفي سُنَّة رسوله ﷺ، وفي آثار مَن سلف، فمما جاء في كتاب الله سبحانه قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

والمعنى قد اختلف فيه المفسرون؛ فمن قائل: سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب، ومن قائل: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة، ومن قائل غير ذلك[١].

وقال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير هذه الآية:

«المترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين، الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن وترتع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتَلِغُ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٥/٥٨.

الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتُطوى صفحاتها، والآية تقرر سنة الله هذه، فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة؛ لأنها أخذت بأسباب الهلاك فكثر فيها، فعم فيها الفسق، فتحللت وترهلت فحقت عليها سنة الله، وأصابها الدمار والهلاك، وهي المسؤولة عما يحل بها؛ لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين، فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلط عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك.

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسنناً لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتعدد النتائج فتنفذ إرادة الله وتحقق كلمته، والله لا يأمر بالفسق؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء، لكن وجود المترفين في ذاته دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها، وسارت في طريق الانحلال، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقاً، وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة»[1].

وقال الأستاذ أبو زهرة ـ رحمه الله تعالى ـ:

«هذا نص صريح قاطع في أن هلاك الأمم وضعف شأنها وانحلال قواها إنما يكون بالشهوات المتحكمة والأهواء المُردية، وسيطرة ذلك

(١) «في ظلال القرآن»: ٤/ ٢٢١٧.

على الذين يوجهونها. . . وفي الآية الكريمة ما يشير إلى أن الترف هو الذي يؤدي إلى الفسق، وأن الفسق هو الذي يؤدي إلى الدمار، فعلى الذين يعملون لرفعة الأمة أن يتجهوا إلى الدعامة التي تقوم عليها؛ وهي قوة النفس وسيطرة الإرادة المؤمنة على الأهواء الجامحة، وأنه كلما كان الترف المردي كانت القوى المنحلة، وكلما كانت الإرادة القوية والعزيمة الصادقة والإخلاص المنير كان النصر المبين، والتأييد من الله رب العالمين»(١).

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ في النهي عن الترف في الطعام والشراب واللباس والمسكن وبألفاظ مختلفة، لكن المعنى واحد، وسيرد كثير منها ـ إن شاء الله تعالى ـ في ثنايا هذه الرسالة، وقد كانت حياته ﷺ بعيدة عن كل مظاهر الترف، وكذلك حياة خُلّص أصحابه ـ رضي الله تعالى عنهم جميعاً ـ.

وقد نهى عمر الفاروق رضي الله عنه أصحابه أن يأخذوا بشيء من أسباب الترف، خاصة لمن سكن الديار المفتوحة، وخالط أهلها المترفين، وقد كتب إلى بعض عُماله العرب على بلاد العجم:

«إياكم والتنعم وزي العجم(٢)، وعليكم بالشمس، فإنها حَمَّام العرب، وتمعددوا(٣)، واخشوشنوا، واخْشَوْشِبوا(٤)، واخْلَوْلِقُوا(٥)،

(١) مجلة لواء الإسلام: العدد الخامس، ١٣٨٨هـ ص٢٥٩.
(٢) أي: لأنهم يبالغون في التأنق في الثياب.
(٣) **تمعددوا**: اخشوشنوا، كما كان شأن معد بن عدنان، فإنه كان صاحب عيش صلب وشدة.
(٤) **اخْشَوْشِبّوا**: كونوا كالخشب صلابة وصبراً.
(٥) **اخْلَوْلِقُوا**: البسوا الخلق من الثياب.

وأعطوا الركب أسنَّتها، وانزوا نزواً[١]، وارموا الأغراض»[٢][٣].

وقال الأستاذ أبو زهرة ـ رحمه الله تعالى ـ:

«كان الخلفاء الراشدون يضربون الأمثال في محاربة الترف، فسيدنا أبو بكر كان يعيش عيشة قريبة من الكمال في الرزق، حتى إذا تولى الخلافة عاش عيشة جافة، وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يسير في المدينة ومعه دِرَّته[٤]، يرهب الأشرار، ويقرب الأخيار، وثيابه مرقوعة، حتى لا تكاد تعد الرقع فيها، وقد كانت خيرات الدنيا كلها تجيء إليه، ثم هذا سيدنا الإمام عليٌّ، كرم الله وجهه، كان قبل الخلافة يعيش عيشة ناعمة، وإن لم تكن مترفة، حتى إذا تولى الخلافة علم أنها الابتلاء الأكبر»[٥].

(١) **انزوا نزواً**: اقفزوا على الخيل قفزاً.

(٢) **الأغراض**: ما يُرمى عليه بالأسهم تمريناً وتدريباً.

(٣) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: ٢٨٦.

(٤) عصاه.

(٥) مجلة لواء الإسلام: العدد السادس، ١٣٨٢هـ ص٣٨٧، ٣٨٨.

المبحث الثالث
أثر الترف في ضعف الدول والشعوب
قديماً وحديثاً

للترف أثر بالغ السوء في الدول والشعوب، بل هو مِعْوَلُ هدم لطاقاتها وقدراتها؛ حيث يغري بالإخلاد إلى الأرض، والاغتراف من المباذل والشهوات، والخوض في سِفْساف الأمور ودناياها، والتعلق بالمناصب والجاه والمال، ونسيان المعاني العلية، وعدم المخاطرة بالنفس في الجهاد في سبيل الله تعالى، والنفور من ارتكاب الصعب من الأمور، لا لشيء إلا لأنه صعب على النفوس، والميل إلى السهل من الأعمال مهما قادت إلى ضعف وهوان... إلخ.

والترف مِعْوَل هدم في الدول القديمة والحديثة على السواء، لا يستثني أحداً ولا يبقي ولا يذر؛ وذلك لأن ما ينتج عنه من ضعف وهوان هو سنة كونية لا تتعلق بقديم أو حديث، وهناك أمثلة كثيرة تَنِدُّ عن الحصر، لكني سأذكر بعضاً منها فقط، فمن أمثلة أثر الترف في الدول والشعوب قديماً:

١ ـــ الرومان والفرس:

وهما القوتان العُظْمَيان، اللتان كانتا تتقاسمان النفوذ والسيادة والتمكين في الأرض، وتستعبدان الناس استعباداً عجيباً، وكانتا تَرْفُلان

في النعم العظيمة، حتى جاء نور الإسلام فجعلهما أثراً بعد عين، جزاء بما كانا يكسبان، قال الأستاذ الندويُّ[(١)] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«بلغ الانحلال الاجتماعي غايته في الدولة الرومية والشرقية... ووصلوا في التبذل إلى أحط الدركات، وأصبح الهمُّ الوحيد اكتساب المال من أي وجه ثم إنفاقه في التَّظَرُّف والترف وإرضاء الشهوات، وذابت أسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية؛ ليقضوا مآربهم في حرية»[(٢)].

ثم يتحدث الأستاذ الندويُّ عن طرائق عيش المترفين في الدولتين الرومية والفارسية فيقول:

«استحوذت على الناس في الدولتين الفارسية والرومية حياة الترف والبذخ، وطغى عليهم بحر المدنية المصطنعة والحياة المزورة، وغرقوا فيه إلى أذقانهم، فكان ملوك فارس والروم وأمراء الدولتين سادرين في غفلتهم، لا همَّ لهم إلا اللذة والتهام الحياة، وبذخوا بذخاً عظيماً تخطى القياس، ودققوا في مرافق المعيشة وفضول المدنية وحواشي الحياة تدقيقاً عظيماً جدّاً، فكان لكسرى أبرويز اثنا عشر ألف امرأة[(٣)]، وخمسون ألف جواد، وشيء لا يحصى من أدوات الترف

---

(١) **الندوي**: أبو الحسن علي بن عبد الحي الحسني الهندي الندوي، نسبة إلى ندوة العلماء بلكنو في الهند، عالم مفكر، أحسن المدافعة عن حقوق المسلمين في الهند، وله في ذلك مواقف مشهودة، له العديد من المصنفات التي حاز بعضها قصب السبق، مثل: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، نال جائزة الملك فيصل العالمية، توفي سنة ١٤٢١هـ عن سن عالية، رحمه الله تعالى.

(٢) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: ٣١.

(٣) كذا وردت.

والقصور الباذخة، ومظاهر الثروة والنعمة. . . وقد وجد العرب قباباً تركية مملوءة سلالاً مختمة بالرصاص، قال العرب: فما حسبناها إلا طعاماً فإذا هي آنية الذهب والفضة!!».

ووصف المؤرخون العرب بساط كسرى الذي أصابه المسلمون يوم المدائن فقالوا:

«هو ستون ذراعاً في ستين ذراعاً، بساط واحد مقدار جريب، أرضه بذهب، ووشيه بفصوص، وثمره بجوهر، وورقه بحرير وماء الذهب، فيه طرق كالصور، وفصوص كالأنهار، وخلال ذلك كالدير، وفي حافاته كالأرض المزروعة، والأرض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب، ونُوّاره[1] بالذهب والفضة وأشباه ذلك، وكانوا يعدونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين، فكانوا إذا أرادوا الشراب شربوا عليه فكأنهم في رياض».

ثم قال:

«كذلك كان الشام في الدولة الرومية وحواضرها. . . وقد بذخ الأباطرة ونوابهم وأمراؤهم في الشام بذخاً عظيماً، وحوى بلاطهم وقصورهم ومجالس شربهم ولهوهم من آلات الترف وأسباب الرفاهية شيئاً كثيراً، وبلغ من الترف والأناقة شأواً بعيداً.

وكان الأمراء والأقيال[2] والأغنياء، ورجال البيوتات الشريفة، وأفراد الطبقة الوسطى؛ على آثار الملوك؛ يحاولون أن يقلدوهم في

---

(١) زهره.

(٢) الرؤساء، جمع قَيْل.

لباسهم وطعامهم ومجالسهم وترفهم، وكانوا يأخذون أنفسهم بعاداتهم ومناهج حياتهم، وارتفع مستوى الحياة ارتفاعاً عظيماً، وتعقدت المدنية تعقداً عظيماً، وصار الواحد ينفق على نفسه وعلى جزء من لباسه ما يشبع قرية أو يكسو قبيلة... ودرج الناس على هذه المدنية المترفة وعاداتها الفاسدة، ورضعوا بلبانها، ونشؤوا عليها... وشق عليهم أن يتنازلوا إلى الحياة الطبيعية البسيطة حتى في ساعة عصيبة، وفي فقر واضطرار؛ ذكروا أن يزدجرد آخر ملوك فارس لما فرَّ من المدائن أخذ معه ألف طاهٍ، وألف مغنٍ، وألف قَيِّم للنمور، وألف قيم للبُزاة[١]، وآخرين، وكان يستقل هذا العدد، واستسقى الهرمزان ملك الأهواز أمام عمر، فأتي به في قدح غليظ، فقال: لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا!! فأتي به في إناء يرضاه»[٢].

أما سائر الشعب فكانوا «يرزحون تحت أثقال الحياة والضرائب... ويعيشون عيش البهائم، لا حظ لهم في الحياة إلا العمل لغيرهم والشقاء لنعيمهم، ولا هم لهم إلا الأكل والعلف، فإذا سئموا هذا العيش المر تعللوا بالمسكرات والملهيات، وإذا تنفسوا من هذا العناء رتعوا في المحرمات، ورغم هذا الجهد في المعيشة يجهدون أنفسهم في تقليد رجال الطبقة العليا في كثير من أسباب حياتهم... وهكذا ضاعت رسالة الأنبياء والأخلاق الفاضلة والمبادئ السامية في العالم المتمدن المعمور بين غِنى مُطْغٍ وفقر مُنْسٍ»[٣].

---

(١) الصقور.

(٢) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: ٧١ ـ ٧٤.

(٣) المصدر السابق (٧٥، ٧٦).

٢ ـــ اليونان:

قال الأستاذ الألماني الدكتور «هاس»:

«المدنية اليونانية هي مركز المدنية الغربية الحاضرة، وكان المهم عند رجالها نشوء قوى الإنسان نشوءاً متناسباً، وكان المثل الكامل عندهم الجسم المتناسب، وليس هذا إلا اعتداداً بالمحسوسات اعتداداً كبيراً، وكان أكبر عنايتهم بالرياضة البدنية والألعاب الرياضية والرقص وغيره... وكان الدين خِلْواً من الروحانية المعنوية»[(١)].

وقال «أبوليس» المؤرخ اليوناني:

«وكان اليونانيون يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء»[(٢)].

ثم كان عاقبة المدنية اليونانية السقوط، وورثها الرومان.

٣ ـــ الأندلس:

والذي جرى على الأندلس وأهله من العاقبة السيئة والنهاية المفجعة يحمل كل عاقل على التفكير ملياً: كيف ينجو من هذا البلاء، وكيف يتجنب هذه العاقبة الخطيرة، والإدالة الذليلة، والهوان العريض، والشر المستطير، ومظاهر الترف الفاحش ـ الذي أدى إلى الهوان، والطرد من الأرض الجميلة، والحرمان من النعمة الجليلة ـ كثيرة متنوعة، فمن ذلك:

أ ـ العناية المفرطة بالعمران:

وهذا سر دفين من أسرار سقوط الدول؛ حيث تصرف الأموال الهائلة على تشييد البنيان، وقد يرتكب من المظالم في سبيل ذلك ما الله

---

(١) المصدر السابق (١٥٨).

(٢) المصدر السابق (١٥٩).

تعالى به عليم، ثم يعقب كلّ ذلك فساد عريض وهوان للشعب على الله وعلى الناس، وانظر إلى عبد الرحمن الناصر[١]؛ الخليفة الأندلسي، كيف بنى مدينة الزهراء، حيث قسم جباية الدولة إلى ثلاثة أثلاث: ثلث للجند، وثلث للبناء، وثلث مدخر، وقد استنفدت الزهراء ثلث إيراد الدولة لمدة ١٧ سنة. ولم يتم بناؤها نهائيّاً إلا بعد أربعين سنة، وانشغل الخليفة وولي عهده بها انشغالاً عظيماً، وجلب الخليفة لها الرخام من تونس وقرطاجنة وإفريقية، ثم دارت الأيام فلم تعمر مدينة الزهراء أكثر من ستين عاماً؛ حيث ابتدأ فيها الخراب في أيام الفتن التي أصابت آخر الدولة الأموية، ثم انمحت شيئاً فشيئاً حتى صارت اليوم يبحث عنها بوسائل الحفريات الحديثة[٢].

وكان عبد الرحمن الداخل[٣] قد بدأ بناء المسجد الجامع في قرطبة سنة ١٦٩هـ، وأنفق في سبيل ذلك ثمانين ألفاً ما بين فضة وذهب، ثم زيد فيه بعده زيادات كثيرة من «مصابيح وثريات. . . وصنائع ونقوش

(١) **عبد الرحمن الناصر**: بن محمد بن عبد الله، المدعو أمير المؤمنين، الناصر لدين الله، الأموي المرواني، لما بلغه ضعف الخلافة تسمى بأمير المؤمنين، كان كثير الغزو حتى خافه الروم، توفي سنة ٣٥٠هـ، رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٢٦٥ ـ ٢٦٩.

(٢) «التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس»: بحث للدكتور عبد الحليم عويس، منشور في كتاب «الذكرى الخمسمئة لسقوط غرناطة»: ٢١١ ـ ٢١٣.

(٣) **عبد الرحمن الداخل**: هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي المرواني المشهور بالداخل، أمير الأندلس وسلطانها، فرَّ من مصر آخر سنة ١٣٢هـ لما سقطت الخلافة الأموية واتجه إلى برقة، فبقي بها خمس سنين، ثم دخل المغرب، ومنها إلى الأندلس وتملكها ثلاثاً وثلاثين سنة، وبقي المُلك في عقبه إلى سنة أربعمئة، توفي سنة ١٧٢هـ، وعاش ستين سنة. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٢٤٤ ـ ٢٥٣.

وزخارف لا يشبه بعضها بعضاً، وبلاط نادر، وقبلة يعجز الواصفون عن وصفها، فيها من الفسيفساء المذهب الكثير. . . وفي جهتي المحراب أربعة عمدان لا تقوَّم بمال»[١].

وصارت مدن الأندلس تتبارى فيما بينها وتتسابق في بناء القصور وإنشاء المدن الجديدة، وإنشاء الضياع الواسعة، وتزيين المدن بالتماثيل ـ على أنها مخالفة واضحة للشرع المطهر ـ فهذا المَقّري[٢] يصف مدينة من مدن الأندلس فيقول:

«وبها أقواس من الحجارة المقربصة[٣]، وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة»[٤].

ب ـ الإسراف في طلب المال وإنفاقه إلى حد كبير مهلك:

والإسراف والتكالب على المال من أهم أسباب هلاك الأمم أو ضعفها، وهذا هو الذي حصل في الأندلس، حيث «كان التكالب على المادة ومظاهر الثراء والبذخ، هي السمات الغالبة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس. . . وكان هذا النمط من الحياة

(١) المصدر السابق: ٢١٥.
(٢) **المَقّري**: أحمد بن محمد بن أحمد، أبو العباس المقري التلمساني، المؤرخ الحافظ، ولد في تلمسان بالجزائر سنة ٩٩٢هـ ونشأ بها، ثم انتقل إلى فاس، فكان خطيبها وقاضيها، ثم انتقل إلى القاهرة وتوفي بها سنة ١٠٤١هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ١/ ٢٣٧.
(٣) لم أقف على معناها.
(٤) التكاثر المادي نقلاً عن «نفح الطيب»: ١/ ١٦٠.

سبباً من أسباب قيام الفتنة الطائفية التي مزقت وحدة الأندلس إلى ٢٢ دولة!!»[١].

«وكان الناس يجهزون بناتهم بمبالغ ضخمة ومظاهر فخمة؛ حتى إن المنصور بن أبي عامر[٢] قد قصده أحد الوجهاء لطلب مال يجهز به ابنته، فملأ ابن أبي عامر حجره بالمال»[٣].

وكان كثير من الأثرياء في قصورهم معتكفين على الموسيقا والفتيات الحسان، وينفقون في سبيل ذلك المبالغ الطائلة، حتى صارت الأسر الغنية لا تكاد همومها تتجاوز الاهتمام بمجالس الأنس والشراب والزهور والنساء والغلمان[٤].

وأدى هذا التكاثر إلى الظلم في تحصيل المال، فهذا رجل يدعى مباركاً وآخر يدعى مظفراً كانا عبدين، ثم ارتقيا حتى ملكا بَلَنْسِيَة وشاطبة، وصارا في سبيل تحصيل الأموال للذائذ والشهوات يظلمان الرعية ظلماً فادحاً، ويقرران على الناس مبالغ ضخمة جدّاً كل شهر

---

(١) المصدر السابق.

(٢) **المنصور بن أبي عامر**: محمد بن عبد الله بن عامر المعافري القحطاني، أبو عامر، المعروف بالمنصور بن أبي عامر، أمير الأندلس في دولة المؤيد الأموي، وأحد الشجعان الدهاة، ولد سنة ٣٢٦هـ، وقدم قرطبة شابّاً طالباً للعلم، فبرع وتقلب في مناصب الدولة من شرطة وقضاء وغيرها، ولما مات المستنصر الأموي كان المؤيد صغيراً، وخيف الاضطراب، فضمن ابن أبي عامر لأم المؤيد سكون البلاد واستقرار الملك لابنها، وقام بشؤون البلاد، وغزا وفتح، ودامت له الإمرة ٢٦ سنة، غزا فيها الإفرنج ٥٦ غزوة، وكان المؤيد معه صورة بلا معنى، توفي في إحدى غزواته سنة ٣٩٢هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ٦/ ٣٢٦.

(٣) «التكاثر المادي»: ٢١٦، ٢١٧ بتصرف.

(٤) المصدر السابق.

يستخرجانها بأشد أنواع العنف، حتى صارت الرعية تخرج من المدينتين، وآل أمرهما إلى الخراب بعد ذلك.

وانظر ما قاله ابن عِذارى المراكشي[١] في هذا الأمر:

«أما مبارك والمظفر فقد سلكا سبيل الملوك الجبارين في إشادة البناء والقصور... إلى أبعد الغايات ومنتهى النهايات، واشتمل هذا الاتجاه على جميع أصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما وكتابهما، فاحتذوا فعلهما في تفخيم البناء... لاهين عما كانت فيه الأمة يومئذ، كأنهم من الله على عهد لا يخلفه... واتسع الخرق في عظيم ذلك الإنفاق، فمنهم من قدرت نفقته على منزله بمئة ألف دينار[٢] وأقل منها وفوقها... حتى بلغوا من ذلك البُغْية، فما شئت من طَرْف رائق[٣]، وملبس رفيع جليل، وخادم عجيب نبيل، وآلات مشاكلة، وأمور متقابلة، تروق الناظرين... وكان لمبارك ومظفر جنة ذلك النعيم... فانغمسا في النعيم إلى قمم رأسيهما، وأخلدا إلى الدعة، وسارعا في قضاء اللذة حتى أربيا[٤] على من تقدم وتأخر»[٥].

وهذا مثال فقط على الإسراف في طلب المال وإنفاقه، وإلا فالأمثلة كثيرة مبكية.

---

(١) **ابن عذارى المراكشي**: هو أبو عبد الله محمد المرَّاكُشي؛ المعروف بابن عِذارى، مؤرخ أندلسي الأصل، من أهل مراكش، توفي حدود سنة ٦٩٥هـ، من آثاره: البيان المغرب في أخبار المغرب انظر: «معجم المؤلفين»: ١٢/ ١٢.

(٢) وهذا مبلغ عظيم جدّاً يعادل اليوم في قوته الشرائية عشرات الملايين، بل مئاتها.

(٣) النساء الجميلات.

(٤) زاداً.

(٥) «التكاثر المادي»: ٢١٧، ٢١٨. نقلاً عن «البيان المغرب»: ٣/ ١٦٠، ١٦١، ١٨٠.

وهكذا انهارت المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى؛ فهل كان ذلك واعظاً لأمراء وملوك المدن التي نجت إلى حين؟! لا والله، فهؤلاء بنو الأحمر أصحاب آخر معقل من معاقل المسلمين في الأندلس؛ غرناطة، هؤلاء قد سارعوا في إنشاء قصر الحمراء، ومَوَّهوا حيطانه بالزخارف الذهبية البديعة، وحصنوا أسواره بألواح المرمر، وزُين القصر بالأشكال المصبوبة ذات الهندسة العربية الفائقة، وحاز القصر على إعجاب فناني العالم إلى اليوم، لكن ما فائدة كل ذلك، بعد سقوطه في يد النصارى؟! ولو عمد حكام غرناطة إلى إنفاق أموال بناء القصر على أمر الجهاد وصناعة عظماء الرجال لكان أولى وأجدى(١).

ضعف الشعب وسقوطه:

ولهذه الأسباب التي ذكرتها مجتمعة ضعف الشعب الأندلسي ضعفاً عجيباً، فصاروا ـ في معظم أحيانهم ـ متهاونين مستسلمين، لا يأخذون الأهبة للقتال، ولا يتحمسون للقاء العدو ومقاومته، لقد خرج أهل بَلَنْسِية من مدينتهم لقتال النصارى عندما حاصروهم دون تأهب ولا حذر، وهم في ثياب الزينة والترفه... فهزموا هزيمة قاصمة، وقتل منهم يومئذ أعداد لا تحصى، فهجاهم أحد الشعراء هجاء لاذعاً بقوله:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستمُ
حلل الحرير عليكمُ ألوانا(٢)

---

(١) المصدر السابق: ٢٢٠، ٢١٩، بتصرف.

(٢) «أسباب سقوط الأندلس الاجتماعية والاقتصادية»: بحث للدكتور محمد رضوان الداية ومهجة الباشا، مجلة بحوث جامعة حلب، العدد العاشر، ١٩٨٧م، ص٩٩ ـ ١٠٠.

«وعندما أفلت زمام الأمور من أيدي أمراء بني الأحمر، وأخذت المدن والحصون تتهاوى أمام جيش النصارى، بدأ الأهالي يستسلمون دون مقاومة تذكر، ويسلمون الحصون للنصارى دون أن يكلفوهم أي قتال أو خسارة»[١].

وكل هذا قد أدى إلى سقوط الأندلس سقوطاً مريعاً، هذا وإني لم أذكر من أسباب السقوط إلا ما كان سببه الترف، أما غير ذلك نحو الظلم الشديد واختلاف الكلمة والخيانة والجبن، فهذا ما لم أتعرض له، وهو شيء يفتت الأكباد ويستدعي ماء العيون[٢].

٤ ـــ بنو العباس:

وهؤلاء كانت دولتهم قوية فتية، ثم أضعفها الترف إضعافاً متدرجاً حتى بلغ غايته بسقوطهم أمام التتار؛ ذلك السقوط المخزي المريع الذي لم يكن مثله سقوط في تاريخ الدول الإسلامية، وانظر إلى ما كانوا يصنعون تعرف لماذا سقطوا وذلوا وهانوا:

ـ فهذا المأمون[٣] ـ وهو من آخر أقوياء الخلفاء ـ قد عقد على بوران[٤] بنت الحسن بن سهل وزيره، فماذا صنع في حفلة عُرسه؟ أو إن شئت قلت: ماذا صُنع له؟

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر إن شئت رسالة «استجابات إسلامية لصرخات أندلسية» لواضع هذه الرسالة، ففيها شيء من التفصيل.

(٣) **المأمون**: الخليفة أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد، ولد سنة ١٧٠هـ، وتوفي سنة ٢١٨هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء» ١٠/ ٢٧٢ ـ ٢٩٠.

(٤) **بوران**: من أكمل النساء أدباً وأحسنهن أخلاقاً، اسمها خديجة، وعُرفت ببوران، ولدت سنة ١٩١هـ، وتوفيت ببغداد سنة ٢٧١هـ، رحمها الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ٢/ ٧٧.

جرت تلك الحفلة في منازل الحسن بن سهل السرخسي؛ التي كانت بفم الصلح بالقرب من مدينة واسط، وفم الصلح اسم نهر كبير كان فوق واسط، عليه عدة قرى، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون، وفيه بنىٰ المأمون ببوران، تزوجها المأمون لمكانة أبيها عنده، واسمها الحقيقي خديجة، وبوران لقبها، احتفل أبوها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في عصر من عصور الجاهلية والإسلام، فقد سافر المأمون وحاشيته ورجال دولته من القواد والكتاب والوجوه إلى فم الصلح، فنثر الحسن بن سهل بنادق المسك على رؤوسهم، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها، فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما في الرقعة مضى إلى الوكيل المرصد لذلك، فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها؛ سواء كان ضيعة، أو مِلكاً آخر، أو فرساً، أو جارية، أو مملوكاً، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبياض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه، وكانوا خلقاً لا يُحصى، حتى على الجمالين والمكارية(١) والملاحين وكل من ضمه عسكره، ولم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه.

وذكر الطبري(٢) أن المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوماً، يعد له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه، وكان مبلغ النفقة عليهم

---

(١) الذين يُستأجرون لقضاء الحاجات.

(٢) **الطبري**: محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، المؤرخ المفسر الإمام، ولد في آمل طبرستان سنة ٢٢٤هـ، ثم استوطن بغداد، وتوفي بها سنة ٣١٠هـ، رحمه الله تعالى، له عدة كتب نافعة وكان مجتهداً لا يقلد أحداً، فصيحاً. انظر: «الأعلام»: ٦/ ٦٩.

خمسين ألف ألف درهم[١]، وكان رحيل المأمون نحو الحسن بن سهل؛ أي إلى فم الصلح، لثمان خلون من شهر رمضان سنة عشر ومئتين.

وفرش الحسن للمأمون حصيراً منسوجاً بالذهب، فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلئ كثيرة.

وقال الطبريُّ أيضاً:

دخل المأمون على بوران الليلة الثالثة من وصوله إلى فم الصلح، فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب، فأمر المأمون أن تجمع، وسألها عن عدد الدر: كم؟ فقالت: ألف حبة؛ فوضعها في حجرها وقال لها: هذه نِحْلتك[٢]، وسلي حوائجك، فقالت لها جدتها: كلمي سيدك فقد أمرك، فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدي[٣]؛ عمه، والسماح بالحج لأم جعفر، وهي الست زبيدة، فقال: قد فعلت، فألبستها أم جعفر البدلة اللؤلؤية؛ وأوقدوا في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون منّاً في تَوْر من ذهب[٤]، فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال: هذا إسراف[٥]!!

وقد قالت الشعراء والخطباء في ذلك فأطنبوا، ومما يستظرف قول محمد بن حازم الباهليِّ:

---

(١) أي: خمسين مليون درهم، وهذا مبلغ هائل ذلك الوقت.

(٢) عطيتك.

(٣) **إبراهيم بن المهدي**: إبراهيم بن محمد بن أبي جعفر الهاشمي العباسي، كان فصيحاً، بليغاً، عالماً، أديباً، شاعراً، رأساً في الموسيقا، توفي سنة ٢٢٤هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٥٥٧ ـ ٥٦١.

(٤) إناء من ذهب. انظر: المعجم الوسيط (ت و ر).

(٥) سبحان الله، والذي مضى كله ألم يكن إسرافاً؟!

بـــــارك الله لـــلـــحـــســــن
ولـــبــــوران فـــي الـــخـــتـــن
يـــا بـــن هـــارون قـــد ظـــفـــر
ت ولـــكـــن بـــبـــنـــت مـــن

فلما نمى هذا الشعر إلى المأمون، قال: والله ما ندري أخيراً أراد أم شرّاً؟ وقد أمر المأمون للحسن عند منصرفه بعشرة آلاف ألف درهم[١]، وأقطعه فم الصلح، فجلس الحسن وفرَّق المال على قواده وأصحابه وحشمه، وقد كان الحسن كثير العطاء للشعراء وغيرهم، فقصده بعض الشعراء وأنشده:

تـقـول خـلـيـلـتـي لـمـا رأتـنـي
أشـد مـطـيـتـي مـن بـعـد حَـلِّ
أبـعـد الـفـضـل تـرتـحـل الـمـطـايـا؟
فـقـلـت نـعـم إلـى الـحـسـن بـن سـهـلِ[٢]

وقد كانت حياتهم مليئة بالترف والإخلاد إلى الأرض، والرضا بمباهجها، والتوسع في ذلك توسعاً عظيماً؛ إذ بنوا بغداد على هيئة عظيمة، وتوسعوا في بناء القصور ذات الأواوين[٣] الضخمة، وتفننوا في البناء والزينة، والزخارف والنقوش، والستائر والبسط، والأثاث،

(١) أي: عشرة ملايين.
(٢) نقلاً عن مقالة بمجلة الرسالة اسمها: مواكب الأعراس في عهد بني العباس، عدد ٥٢٧، سنة ١٣٦٢هـ ص٦٣٢، ٦٣٣، وقد أورد الأستاذ حكايتين أخريين مليئتين بأسباب الترف.
(٣) جمع إيوان، وهو القاعة.

والتماثيل والتحف، والأواني، وفي الطعام والشراب، كما تأنقوا في الجواهر والزينة، والطيب والملبس والثياب، متأثرين بالأزياء الفارسية، واهتموا بأدوات الترويح واللعب: كسباق الخيل، وسباق الحمام الزاجل، ولعبة الصولجان، والشِّطْرَنْج، والنرد، والصيد بالبزاة والصقور والشواهين، والكلاب والفهود، وهذا يدل على الترف والبذخ الذي كان يتمتع به الخلفاء، وأبناء البيت العباسي، والوزراء والقواد وكبار رجال الدولة، والتجار، وبعض الشعراء، والكتاب، والمغنين، والعلماء.

أما الشعب فيكدح ويعيش في بؤس وشقاء، ويتحمل أعباء الحياة إلى غير حد، وفئة قُتر عليها في الرزق، فهي تشقى إلى غير حد، واضطربت أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم.

وكانت خزائن الدولة مملوءة، تحمل إليها الأموال والذهب والفضة من جميع أرجاء الدولة، وتُروى في ذلك روايات كثيرة تبين مدى الثراء والترف والنعيم، ومظاهر الإنفاق على الجواري والقيان والمغنين والحفلات، والحاشية والأعوان، وتبين جود الخلفاء، والوزراء، والولاة، والقواد، وكرمهم وعطاياهم للشعراء وغيرهم، ونفذوا إلى طائفة من الآداب: كآداب المائدة، واقتبسوا كثيراً منها عن الفرس، وآداب المسامرة والمنادمة... وكان هذا البذخ، وما صاحبه من اعتصار الشعب، هو السبب الحقيقي في كثرة الثورات على العباسيين.

أما العامة فكانت تعيش حياة فقيرة قاسية، تعاني البؤس والضنك والكفاف، ملاهيهم الفرجة إلى الحوائين والقَرَّادين، والاستماع إلى القُصَّاص الذين يروون القصص الخيالية، والحكّائين الذين يحكون في

دقة لهجات سكان بغداد، ونازليها من أعراب، ونبط، وزنوج، وهنود، وخراسانيين، وروم.

وكان الرقيق والجواري والغناء من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية، فقد كثر الرقيق بسبب كثرة من كانوا يُؤسرون في الحروب، فقد كانت تجارة النخاسة رائجة ورابحة، وكان رقيق النساء من الجواري أكثر من رقيق الرجال، وامتلأت بهن دور النخاسة، والقصور والدور، وكن من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة، فأثَّرن آثاراً واسعة في أبنائهن ومحيطهن؛ سواء كانوا خلفاء، أو غير خلفاء، كما كان لهن أثر كبير على الشعراء الذين يرتادون دور النخاسة، وكان بعضهن مثقفات بفنون الأدب وقول الشعر، فيملأن على الشعراء قلوبهم وعقولهم.

وتسابق الأغنياء على اقتناء القيان والمغنيات، ودفع الأثمان الباهظة فيهن، ومن لم يقتن جارية أو قَيْنة يستطيع استئجارهن ممن يرعاهن ويعلمهن، وكثيرات كن يضربن على الآلات الموسيقية، ويحسنَّ الرقص(١).

أما طعامهم وشرابهم فحدث ولا حرج عن ترفهم فيه وإسرافهم وتبذيرهم، وكان يُحمل إليهم مع خراج الريِّ الرمان والخوخ، ومن أصبهان والموصل العسل والشمع، ومن الكوفة البنفسج، ومن جُرجان النرجس، ومن طَبَرِسْتان الأُتْرج، ومن مكة والمدينة والحجاز العنبر والزبيب، ومن الأهواز السكر، ومن فارس ماء الورد والزبيب الأسود

---

(١) شوقي ضيف؛ سيرة وتحية: الدكتور طه وادي (ص٧٧، ٧٨)، والكلام نقله الدكتور عصمت غوشة من مؤلفات د. شوقي ضيف.

والرمان والسفرجل والتين، ومن دمشق التفاح، وكانوا إذا اشتهوا شيئاً ولم يكن له نصيب في الخراج أرسلوا يطلبونه، فقد كانوا يطلبون ألوان اللحوم والطيور ولو بَعُد مكانها فتأتيهم على البريد، وينفقون في ذلك الأموال الكثيرة.

وكان الطباخون يهيئون لهم من الألوان الكثيرة ما لم يُعرف أو يُسمع به من قبل.

وأحد الخلفاء قد طلب يوماً لوناً من طعام فقيل له: ما عُمل اليوم، فأنكر ذلك وقال: يجب ألا يخلو المطبخ من كل شيء حتى إذا طُلب لم يتعذر، ووقَّع إلى ديوان النفقات بإقامة ذلك اللون إلى أن يرد التوقيع بقطعه، فكان يُعمل ويُنفق عليه دراهم كثيرة، ولا يحضر المائدة؛ توقعاً أن يطلبه، فيقدم عند الطلب كما رَسَم، فمضى على ذلك سنة، ولم يطلبه، وهو يُصنع، وكان هذا اللون جَزُوريةً، وكان الطباخ يذبح في كل يوم قَلُوصاً! [١][٢].

ولم يكن هذا شأن كل خلفاء بني العباس، لكن كان هذا السمة الغالبة لأكثرهم، ثم إنه لا ينبغي أن نسأل بعد كل ذلك الذي ذُكر: لماذا سقطت دولة بني العباس؟!

تلخيص لما سبق ذكره:

ما أجمل وأصدق ما قاله الأستاذ أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله

---

(١) **القلوص من الإبل**: الفتية المجتمعة الخلق، وذلك من حين تركب إلى التاسعة من عمرها، ثم هي ناقة. انظر: المعجم الوسيط (ق ل ص).

(٢) من مقال الدكتور صلاح الدين المنجد بمجلة الرسالة: العدد ٦٥٨، سنة ١٣٦٥هـ، (١٦٣)، والخليفة هو المعتضد.

تعالى ـ معبراً عن حال الأمة آنذاك، ولماذا سقطت، بعبارة وجيزة جامعة:

«لقد أتى على العالم العربي عهدٌ في التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فرد واحد؛ وهو شخص الخليفة أو الملك، وحوله حفنة من الرجال هم الوزراء وأبناء الملك، وكانت البلاد تعتبر ملكاً شخصيّاً لذلك الفرد السعيد، والأمة كلها فوجاً من المماليك والعبيد، ويتحكم في أموالهم وأملاكهم ونفوسهم وأعراضهم، ولم تكن الأمة التي كان يحكم عليها إلا ظلّاً لشخصه، ولم تكن حياتها إلا امتداداً لحياته.

لقد كانت الحياة تدور حول هذا الفرد بتاريخها وعلومها وآدابها وشعرها وإنتاجها.... كذلك تضمحل هذه الأمة في شخص هذا الفرد، تذوب فيه، وتصبح أمة هزيلة لا شخصية لها ولا إرادة، ولا حرية لها ولا كرامة.

وكان هذا الفرد هو الذي تدور لأجله عجلة الحياة، فلأجله يتعب الفلاح، ويشتغل التاجر، ويجتهد الصانع، ويؤلف المؤلف، وينظم الشاعر، ولأجله تلد الأمهات، وفي سبيله يموت الرجال وتقاتل الجيوش، بل ولأجله تلفظ الأرض خزائنها، ويقذف البحر نفائسه، وتستخرج كنوز الأرض خيراتها»[(١)].

وكانت الأمة ـ وهي صاحبة الإنتاج وصاحبة الفضل في هذه الرفاهية كلها ـ تعيش عيش الصعاليك، أو الأرقاء المماليك.

---

(١) لئن بالغ الأستاذ الندوي ـ رحمه الله ـ في بعض جوانب سرده، فقد صدق في أخرى، بل قصَّر قليلاً في إيراد ما هو أعظم وأخطر من الوقائع والأحداث.

هذا هو العهد الذي ازدهر في الشرق طويلاً، وترك رواسب في حياة الأمة ونفوسها... لم يكن عهداً إسلاميّاً ولا عهداً طبيعيّاً معقولاً، فلا يرضاه الإسلام ولا يقره العقل، بل إنما جاء الإسلام بهدمه والقضاء عليه، فقد كان هذا هو العهد الذي بُعث فيه محمد ﷺ فسماه الجاهلية، ونعى عليه، وأنكر على ملوكه ككسرى وقيصر، وعلى أثرتهم وترفهم أشد الإنكار، إن هذا العهد غير قابل للبقاء والاستمرار في أي مكان وفي أي زمان، ولا سبيل إليه إلا إذا كانت الأمة مغلوبة على أمرها أو مصابة في عقلها، أو فاقدة الوعي والشعور، أو ميتة النفس والروح»[١].

الترف في الدول والشعوب في العصر الحديث:

قد نخر سوس الترف في عدد من الدول الغنية في العصر الحديث، وأورثها ذلّاً وهواناً، وخَوَراً وضعفاً، فلم تعد تقوى على الوقوف في وجه أعاصير الأحداث، واجتاحها صنوف من الهوان، وسقطت سمعتها، وهان على الناس شأنها، والأمثلة على ذلك كثيرة، أذكر واحداً منها مثالاً على الدول الغربية، والأمثلة الباقية لدولنا العربية الإسلامية:

١ ـ فرنسا:

حيث لم تستطع الوقوف أمام ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، واجتاحتها العساكر الألمانية حتى وصلت إلى باريس بدون عناء يذكر، يقول المشير مونتجمري:

في الحرب يكون العدو ظاهراً واضحاً، أما في زمن السلم فإن الأمة تواجه عدوّاً أشد خبثاً هو الضعف من الداخل، وإذا أمسك

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

الترف بتلابيب الأمة وسيطر على رجولتها وطبيعتها، وإذا أهملت الصفات الحربية[١]، فسوف يكون ذلك سبباً في سقوط هذه الأمة، وإذا كنا في حاجة إلى مثل على ذلك من العصر الحديث فأمامنا فرنسا، إنها أمة عظيمة من كافة الوجوه[٢]، غير أن الضعف من الداخل نهش روحها في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية، وحدث الانهيار في عام ١٩٤٠م أما جحافل القوات الهتلرية. . . إن الخطر الآتي من الداخل قائم، ويجب التأهب لصده باستمرار، وهنا أتوقف قليلاً لأقول: إن كاهن دلفي كان على حق.

يشير مونتجمري إلى ما يروى من أن الأسبرطيين[٣] عندما كانوا في أوج مجدهم العسكري في زمن الإغريق أرسلوا وفداً إلى كاهن مدينة دلفي ـ مدينة يونانية ـ وسألوه في غرور أحمق: هل تعتقد أن هناك ما يمكن أن يلحق الأذى بأسبرطة؟ فأجاب الكاهن بسرعة: نعم، الترف![٤]

وقال المودودي الأستاذ[٥] موضحاً أثر الحد من التناسل ـ وهو مظهر من مظاهر الترف ـ على فرنسا:

(١) يريد الشدة والاخشيشان والقوة. . . إلخ.

(٢) في ظنه ورأيه.

(٣) في اليونان.

(٤) مجلة الأزهر: الجزء ٨، السنة ٦١، سنة ١٤٠٩هـ ص٧ ـ ٩.

(٥) **المودودي**: أبو الأعلى أحمد بن حسن الحسني المودودي، رئيس الجماعة الإسلامية بباكستان، مجاهد، علاَّمة، مفكر، ولد بالهند في مدينة أورانج آباد سنة ١٣٢١هـ، عمل في عدة أعمال، وأنشأ الجماعة الإسلامية سنة ١٩٤١م، واعتقل عدة مرات، وحكم عليه بالإعدام ثم خفف الحكم. له خمسون مؤلفاً، بل يزيد، توفي بنيويورك سنة ١٣٩٩هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «إتمام الأعلام»: ٤٣ ـ ٤٤.

«كان أكثر الأمم تأثراً بحركة منع التناسل هي فرنسا، فكانت نسبة المواليد فيها إلى الانخفاض منذ أربعين سنة على التوالي ـ عند نشوب الحرب العالمية الأولى ـ ولم تكن إلا عشرون مقاطعة من مقاطعات فرنسا السبع والثمانين تربو فيها نسبة المواليد على نسبة الوفيات، وأما المقاطعات السبع والستون الباقية فكانت نسبة الوفيات فيها أكبر من نسبة المواليد، وكان معدل الوفيات في بعض مقاطعاتها يتراوح بين ١٣٠ و١٧٠ بإزاء كل مئة مولود.

فلما نشبت الحرب العالمية الأولى ودفعت الأمة الفرنسية إلى موقف حرج بين الموت والحياة، أدرك أرباب فكرها بغتة أن هذه الأمة البائسة تفتقر إلى شباب مقاتلين ورجال محاربين، وأنه إن ضُحي ـ على الفرض ـ بذلك العدد القليل من شباب الأمة وفتيانها في سبيل الدفاع عن الوطن في تلك الآونة، فإنه لن تمكن النجاة من كرة العدو الثانية، فكان من انبعاث هذا الشعور في نفوس الفرنسيين أن تملكت مشاعرهم فكرة الاستزادة من النسل حتى خبلتهم، وجعل الكتاب والصحفيون والخطباء، وحتى أهل الجد من رجال الدين والسياسة، كلهم يهيبون بالناس من كل جانب وبصوت واحد أن يكثروا من التوليد والتناسل، ولا يبالوا بالقيود التقليدية من النكاح والزواج، ونادوا أن العذراء التي تتبرع برحمها للتوليد خدمة للوطن تستحق العز والكرامة لا العتب والملامة!! وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة حاله حافزاً قوياً لدعاة الحرية والإباحية، فانتهزوا الفرصة السانحة»[1].

---

(١) «الإسلام ومشكلات الحضارة»: ١٥١، ١٥٢. للأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى، نقلاً عن كتاب الحجاب للأستاذ المودودي.

ثم قال في موضع آخر:

«إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم اضمحلال قواهم الجسدية، وتدرجها إلى الضعف يوماً فيوماً، فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم، وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم، وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم، فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوبة في المتطوعة للجيش الفرنسي ـ على فترة كل بضع سنين ـ لأن عدد الشباب الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة على مسير الأيام، وهذا مقياس أمين يدلنا ـ كدلالة مقياس الحرارة في الصحة والتدقيق ـ على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في الأمة الفرنسية»(١).

ثم قال ـ رحمه الله تعالى ـ:

«والنكبة الثانية التي قد جرَّها على التمدن الفرنسي طغيان الشهوة المطلقة ورواج الإباحية وقبولها هي خراب النظام العائلي، وتقوض بنيانه»(٢).

ثم ذكر الأستاذ المودودي ـ رحمه الله تعالى ـ أمثلة متعددة من الشعوب الغربية، وقال الأستاذ سيد معقباً:

«إن الذين يخالفون عن قانون الفطرة لا يمكن أن يمضوا بلا عقاب، وهو عقاب رهيب، ولو تفتحت عليهم أبواب كل شيء من خيرات الأرض، ورخاء العيش، ومضاعفة الدخل، والضمانات المادية

---

(١) المصدر السابق: ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) المصدر السابق: ١٥٣.

الخيالية، فللحياة الإنسانية قوانينها الفطرية الصارمة التي لا تجامل، ولا تتخلف، ولا تلين... ولقد حذر الله سبحانه وعباده عواقب التعرض للخلاف عن هذه القوانين، وذلك حين يعرضون عن منهج الله وهداه المتمشي مع سنته في الكون، فلا تكون لهم من عواقبها نجاة: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤][١].

إذاً كان هذا الذي ذكر عن فرنسا مثالاً واحداً، وسيأتي مثال آخر في تضاعيف الكلام الآتي قريباً ـ إن شاء الله تعالى ـ وإن كانت الأمثلة الغربية كثيرة في الحقيقة، وقد ذكر الأستاذ الكبير الدكتور عيسى عبده[٢] أن هنالك عالماً فيلسوفاً ألمانياً اسمه شبلنجر ألف كتاباً أسماه «مغرب الغرب» أو كما يقولون: «أفول نجم الغرب»، ومات هذا الرجل سنة ١٩٢٦م، ولكن الذي استوقف نظري أن كتابه طبع مرات كثيرة بعد موته، ثم صدرت منه طبعة أخيرة سنة ١٩٦١م ظهرت في

---

(١) «الإسلام ومشكلات الحضارة»: ١٦٤.

(٢) **عيسى عبده**: من الاقتصاديين الإسلاميين، تخرج في جامعة مانشستر بإنجلترا، تبين له فساد النظام الربوي، فعاش حياته كلها لبيان آثاره الخطيرة، داعياً لتأسيس بيوت مالية ومصارف تقوم على النهج الإسلامي، شارك في إنشاء أقسام الاقتصاد الإسلامي في عدد من الجامعات العربية، وألّف عدداً من الكتب في الموضوعات الاقتصادية المختلفة، توفي سنة ١٤٠٠هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «إتمام الأعلام»: ١٩٥.

إنجلترا في صورة مختصرة، ومن أهم ما نادى به هذا العالم الألماني قوله: «إن الحضارة المادية التي أترف فيها الناس، والتي كانت سبباً في تقدم أوروبة وأمريكا على غيرهما من الشعوب هي سبب أفول نجم هذه الشعوب»، كتب هذا سنة ١٩١٩م وسنة ١٩٢١م، وأعيد الطبع سنة ١٩٦١م مع أن المؤلف مات سنة ١٩٢٦؛ لأن الكُتَّاب والناقدين رأوا أن ما كتبه شبلنجر في أعقاب الحرب العالمية الأولى يكاد يصف أحداث اليوم؛ ولهذا أعيد الطبع من جديد، وتدور فكرة الكتاب حول مسألة واحدة: «لا علم بغير دين، ولا فضيلة بغير دين، ولا بقاء للسلطة بغير دين، والدين لا يجيز هذا الترف والفساد الذي نعيش فيه»(١).

وهذا الذي قاله الدكتور عيسى قبل أربعين سنة قد تعاظم اليوم، حتى استولى الترف على كثير من الناس في الغرب والشرق على السواء، وبقيت بلاد الإسلام في أكثرها في مرحلة وسطى، فهي ليست مترفة ترف الغربيين، ولا هي بمحافظة على خلق الأولين من السلف الصالحين، بل تجنح إلى هؤلاء تارة وإلى أولئك أخرى، كما سأبين في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى.

٢ ـ الدول العربية:

العرب هم مادة الإسلام، وقوام قوة المسلمين، إن ذل العرب ذلوا، وإن عز العرب وقووا قوي المسلمون وازدهر شأنهم، ليس ذاك عن قومية عفنة منتنة، معاذ الله، بل لأن القرآن نزل بلغتهم، وهم الأقدر على فهمه وتطبيقه، ولئن فعلوا وعاونهم سائر المسلمين لا تقوم

---

(١) مجلة لواء الإسلام: العدد السادس، ١٣١٨هـ، ص٣٨٢ ـ ٣٨٣.

قوة في الأرض في وجههم، ولكن ما هو حالهم اليوم؟ يقول الأستاذ الندوي ـ رحمه الله تعالى ـ مبيناً شأنهم:

«اعتاد العرب لأسباب كثيرة وبتأثير الحضارة الغربية حياة الترف والدَّعَة، والاعتداد الزائد بالكماليات وفضول الحياة والإسراف والتبذير، والاستهانة بمال الله في سبيل اللذة والشهوة والفخر والزينة[1].

وبجانب هذا الترف والنعيم وحياة البذخ والتبذير جوعٌ وعريٌّ وفقرٌ فاضح، يرى الناظر مناظره الشائنة في عواصم البلاد العربية، فتدمع العين، ويحزن القلب، وينتكس الرأس حياء وخجلاً»[2].

وقال الأستاذ أبو زهرة ـ رحمه الله تعالى ـ:

«وهل نحن في مجتمعنا الإسلامي عامة، والعربي خاصة، والمصري بصفة أخص تجنبنا متارف الحياة ولم نأخذ منها إلا بمقدار استرواح النفس؟ الجواب عن ذلك نأخذه من حاضر معاين، وشاهد قائم.

وقد يقولون: إن الأمم التي نقلدها في ذلك الترف المغري قوية، ادَّرعت بالحديد والنار، نقول لهم: إنها ادَّرعت بالمال والحديد، ولكن لم تَدَّرِع بالأخلاق الإنسانية العالية والعزائم القوية، ونرى ذلك واضحاً في معاركهم، ألم تر أمريكا القوية بمالها وبسلاحها وكثرة عددها وسعة سلطانها، وهي واقفة حائرة، في معركة يذوب جيشها

(١) قد قال الأستاذ الندوي هذا الكلام قبل ٥٣ سنة من الآن! فتأمل الوضع في هذا الزمان!!

(٢) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: ٢٨٧.

ذوبان الثلج في مكان حار، أمام طائفة من الناس لا يتجاوز عددهم ستة عشر مليوناً؟!! ولكن الطائفة الصغيرة مدرعة بإرادة وعزيمة، وتعيش أدنى معيشة، أرسل طاغوت أمريكا إليهم مئة وخمسين ألفاً، ثم تزايد العدد حتى تجاوز خمسمئة ألف، وقائده يطلب المزيد، فليزد، ومهما تكن الزيادة فجيشه كحمر مستنفرة، فرت من قسورة»[١].

وقال أيضاً ـ رحمه الله تعالى ـ:

«ولننظر في حالنا نجد أن البلاد الإسلامية أو العربية أو البلاد المصرية على وجه الخصوص تنقسم إلى قسمين[٢]:

قسم يعيش على ملء بطنه إن وجد ما يملؤها، وعلى ستر عورته إن وجد ما يسترها، وهذا هو الكثرة الكاثرة.

وقسم يعيش في ترف يُذهب كل معنى من معاني الرجولة، وهؤلاء إذا استمروا مسيطرين على الرأي العام الفكري فبشِّر مصر والعرب بالخراب المستعجل! ونرجو ألا يكون.

إننا نجد الآن دور الملاهي والصحف والمجلات إذا استثنينا المجلات الإسلامية المحدودة النشر، والتي لا يقرؤها إلا من يتمسك بدينه، ولا ينتفع بها غيره[٣]، نجد تلك الدور كلها تصور حياة

---

(١) مجلة لواء الإسلام: العدد الخامس، ١٣٨٨هـ، ص٢٦٣، والأستاذ يتحدث عن حرب فيتنام.

(٢) هذا كان قبل أربعين سنة، لكن الصحوة أنشأت ـ بفضل الله تعالى ـ القسم الثالث المتوسط الذي كان نادراً تلك الأيام، وأعني بالصحوة: الصحوتين؛ الإسلامية، والاقتصادية، في طفرة أواخر القرن الرابع عشر الهجري، والانفتاح الذي حصل بسببها.

(٣) وهذا كان في زمانه، لكن الأمور ـ بفضل الله ـ تغيرت إلى الأحسن بعد الصحوة.

المترفين، وكذلك الروايات السينمائية نجدها تمثل قصوراً لقوم يتنعمون بأبلغ أنواع التنعم، ثم نجد معانيها كلها تتجه إلى اللذات وإلى الشهوات وإلى الإسراف فيها، ولا تجد فيها إلا مناظر السكارى والراقصين والراقصات، فإذا أردنا أن نعرف مجتمعنا من دور السينما ومن الأفلام نرى أنه مجتمع لاهٍ لاعب عابث، ثم إن تلك المناظر تقتل النخوة وتثير في الشباب الرغبة الملحة في أن يكونوا كأبطال السينما، يطلبون الهوى والترف واللذة، ولننتقل إلى الصحف فنرى كل صحيفة تنقل أخبار المترفين وأوصاف الملاذ والشهوات عن أمريكا وعن فرنسا وعن إنجلترا، وكذلك أنباء المطربين والمطربات وما هم عليه من ترف، فكأننا في جو يدعو إلى الترف، مع وجود الحرمان المطلق!!

لذلك نخشى على أنفسنا، ونخشى على مصر والعرب أنه إذا استمرت تلك الدور تؤدي دورها فالويل ثم الثبور والهلاك للأمة العربية، وهو هلاك لا قبل لها باحتماله؛ لأن الترف كان فيما مضى محصوراً في طبقات معينة، ولم يكن معلناً في كل مكان، وكان يستتر استتاراً؛ لأن الأمة العربية كانت في شكيمتها وفي عزها وفي قوتها لا تخنع ولا تذل، إذا اختبرت أبلت بلاء حسناً في اختبارها، أما إذا ساد الأمر الآن فإننا نخشى على الأمة كل الخشية، وخصوصاً إن علمنا أن التلفزيون سيرسل إلى بلاد الفلاحين، وأنه يراد أن يكون في كل جمعية تعاونية تلفزيون؛ ليرفه عن الأهلين، وليروا فيه ترف المفسدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

---

(١) مجلة لواء الإسلام: العدد ٦، ١٣٨٢هـ، ص٣٨٨.

هذا الذي ساقه الأستاذ أبو زهرة ـ رحمه الله تعالى ـ كان قبل أربعين سنة، فما أشبه الليلة بالبارحة؟! بل قد سبقت الليلة البارحة بمفاوز بعيدة! فإنّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وهناك عدد من الدول العربية والإسلامية سقط كثير من أفرادها في مستنقع الترف، وولغوا فيه، ونَهَلوا وعَبُّوا، حتى صارت السمة الظاهرة لهذه الدول الترف والإخلاد إلى الأرض، وعدم التطلع إلى المعالي، والتعلق بسِفْساف الأمور ودناياها.

وهناك عدد من الدول العربية والإسلامية يُخشى على أبنائها من التأثر بمتع الحياة الدنيا والاستغراق في تناولها، وأن يؤدي بهم ذلك إلى الترف والتميع، والالتحاق بركب الدول التي رتعت في الترف طويلاً وتأثرت به تأثراً سيئاً.

ولنضرب مثالاً على القسم الأول؛ وهو من سقط في مستنقع الترف:

فهذه احتفالات تجري في بلد عربي جُلب لها «فرق الرقص والطرب من أنحاء العالم العربيِّ، ووجهت مئات الدعوات لحضور هذه الليالي الراقصة، حتى إن جميع الفنادق فاضت بنزلائها، ولم يعد مكان لضيوف وزارة الإعلام الرسميين، ثم وزعت الجوائز والهدايا الثمينة على هذه الجموع إظهاراً للكرم الفياض!»[1].

وهذه الحفلة قد مر عليها الآن أزيد من ثلاثين سنة؛ فما ظنكم بحفلات اليوم؟!

---

(١) مجلة المجتمع: العدد ١٣٠، ١٣٩٢هـ، ص١١.

دراسات اجتماعية اقتصادية
عن حال بعض الشباب في هذه الدول

وهناك دراسة اجتماعية اقتصادية عن واقع الشباب في إحدى دول الخليج العربي؛ وهي دراسة اعتمدت على مقابلات مباشرة لمجموعة من الشباب والشابات، وتظهر هذه الدراسة بوضوح مدى ضعف الوعي عند أولئك بأهمية المال، وأنه نعمة من الله تعالى، وأنه يجب إنفاقه بلا إسراف ولا تبذير، وأنه على المرء أن ينفقه فيما يحتاجه أو تكمل به راحته، لا فيما لا طائل من ورائه سوى الفخر والخيلاء والتبذير، ونصت الدراسة على أن «الرفاهية المادية جعلت المرأة أكثر اهتماماً بأنماط سلوكية مظهرية، تتمثل في الحرص على اقتناء الحلي والمجوهرات الثمينة، والثياب، والكماليات والعطور باهظة التكاليف، ولقد أكد على مثل هذه الآراء بعض الشباب، وعلى وجه العموم تشير هذه الحالات إلى أن المشكلة لا تكمن في التمتع بأساليب الحياة المادية، ولكن في تعدي حدود الإمكانات المادية بشكل يرهق ميزانية الأسرة.

ولقد أشارت إحدى الحالات إلى حقيقة هامة؛ وهي ارتباط النمط الاستهلاكي بالإمكانات المادية والمكانة الاجتماعية، بمعنى الرغبة في إظهار القدرة على الاستهلاك، والإسراف في الاستهلاك ليس لمجرد إشباع الاحتياجات المادية الفعلية، بل أيضاً لإرسال رسائل رمزية للآخرين، تتضمن نوع المكانة الاجتماعية التي تتمتع بها، وعلى سبيل المثال:

عندما أثير موضوع أن المجتمعات الغربية تستهلك لكنها تنتج ما تستهلكه، كانت الإجابة السريعة في الحالة السابقة هي أن الفرد في مجتمع (س) يستهلك من الأجهزة الكهربائية والمجوهرات ما يزيد عن ثلاثة أضعاف ما يستهلكه الفرد في تلك المجتمعات الصناعية، وكانت الإجابة تركز على التفوق في القوة الشرائية أو الثراء كعامل تعزيز للمكانة الاجتماعية وتعظيم الذات، ويظهر مثل ذلك النمط السلوكي الذي يؤكد على هيمنة رموز التميز لدى الشباب في تغيير موديلات أحدث السيارات وأكثرها تكلفة في العام الواحد أكثر من مرة، ويظهر أيضاً في اقتناء أكثر من هاتف متحرك للشخص الواحد، إن مثل هذه المبالغة في الإسراف أو الشره الاستهلاكي غير الرشيد، ترتبط بأنماط جديدة ودخيلة على الثقافة المحلية، كما أن مثل هذه الأنماط السلوكية تحمل رسائل اجتماعية ورموزاً شخصية تهدف إلى تضخيم الذات، ومن الإفرازات السلبية للرفاهية المادية ظهور نمط السلوك المدلل على حد تعبير إحدى الحالات، وهذا السلوك النمطي المدلل ناجم عن إحساس بعض الشباب بأنهم مركز اهتمام الجميع، أو أن الجميع يعملون من أجلهم، وبالتالي لديهم قيم الاعتماد على الغير في كل مجالات الحياة، كما تتأكد لديهم نزعة الأخذ لا العطاء، وعدم شعور هؤلاء الشباب بالمسؤولية يدفعهم إلى أعمال الطيش والتهور؛ مثل قيادة السيارة بسرعة كبيرة، في حين أنه لا يوجد سبب لذلك إلا التباهي، كما أن هذه السرعة لا تتفق مع الخمول والكسل والبطء الذي يتسم به سلوك هؤلاء الشباب.

وفي النهاية تؤكد الدراسة أن الرفاهية المادية يمكن أن تكون ذات تأثير أكبر إيجابية على أنماط سلوك الشباب؛ إذا ما تضافرت الجهود

لتعزيز العلم، والتسلح بالقيم والمبادئ الدينية، وتوفير السبل لتكوين الأسرة المتماسكة وتعزيزها»[١].

وفي دراسة ميدانية أخرى ذُكر أن جانباً كبيراً من النسوة في أحد المجتمعات الخليجية قد تحول إلى «جماعة مستهلكة، بهرَتْهُنَّ المنتجات الغربية إلى الدرجة التي أصبح فيها الاستهلاك عندهن قيمة في حد ذاتها، مسهمات بذلك في تدعيم التبعية الاقتصادية والثقافية لمجتمعهن، والأمر ينطوي على خطورة كبيرة، خاصة إذا ما علمنا أن هؤلاء النسوة بقيمهن المادية التي اكتسبنها مسؤولات عن إعداد الأجيال القادمة»[٢].

وأما مثال القسم الآخر ـ وهو الدول التي تخشى ـ فرجلٌ بنى قصراً فخماً من أجل ممثلة ساقطة أجنبية، وقال لها: ستعيشين فيه كملكة، وكان يملك حول القصر حقولاً، بل قرى بأسرها[٣].

وهناك مثال آخر لهذا القسم من الدول والشعوب ذكره الأستاذ علي الطنطاوي[٤] ـ رحمه الله تعالى ـ بأسلوبه المميز المعروف، فقال تحت عنوان: «بطون جائعة وأموال ضائعة»:

«وُلد لي في هذا الأسبوع مولود جديد، فأُهدي إلى أمه أكثر من عشرين علبة شكولاته، من هذه العلب التي جدَّت في دمشق، وصارت

---

(١) «واقع الشباب»: ٢٩ ـ ٣٥.

(٢) «المرأة»: ص١١٠.

(٣) مجلة الرسالة: العدد ١٦٦، ١٣٥٥هـ، ص١٤٤٠.

(٤) **علي الطنطاوي**: توفي ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ١٤٢٠هـ، وهو من أدباء العربية المشهورين الذين انفردوا بساحة الأدب لتأخر وفاته، وكتبه ورسائله ومقالاته كثيرة شهيرة.

(مودة) الوقت، كل علبة منها لعبة كبيرة بأشكال وألوان، ما عرفناها قبل الآن، منها ما هو على صورة طيارة بأجنحتها وذنبها ومحركاتها ودواليبها، ومنها ما هو على شكل عربة بخيولها ولُجُمِهَا وسائقها، كل ذلك مصور بشكل دقيق الصنعة، ومنها ما هو على هيئة سرير له فراش ووسادة من الحرير، وفي كل منها قبضة من السكر والشيكولاته، وهي ملفوفة بالورق الصقيل الشفاف، معقود عليها شريط من خالص القَزّ(١)، لا يقل ثمن إحداها عن عشرين ليرة سورية(٢)، فلما ذهبنا نفتحها تقطع الشريط وتمزق الورق، ثم تسلمهما منا أولاد الدار، وأبناء الضيوف؛ لأنها لعب خلقت لهم لا للكبار، فلم تكن إلا أيام حتى تكسرت في أيديهم، وكيف لا تتكسر وهي مصنوعة من قطع الخشب الملون الملصق بعضه ببعض، لا يحتمل صدمة ولا نقرة؟! وعاد حطباً انتهى به الطريق إلى المدفأة، فاحترقت أربعمئة ليرة كان يمكن أن يشترى بها من خبز البلدية عشرون ألف رغيف(٣)، ومن الثياب النسائية المستعملة التي توزعها وزارة التموين أربعمئة ثوب، ويمكن أن يتزوج بها من الفقراء أربعة رجال، هذا وأنا رجل معتزل الناس، لا أديم مواصلتهم، ولا أؤدي حقوقهم، خارج على مواضعاتهم(٤)، ثائر على عاداتهم، لا أصنع إلا ما أجده نافعاً معقولاً، ولي من جرأة جناني ومضاء لساني عاصم من لومهم وتعنيفهم، وهذا هو المولود الثالث لا الأول، فكيف

---

(١) أي الحرير الطبيعي.

(٢) وهي بمقاييس شراء هذا الزمان لا تقل عن ٤٠٠ ريال سعودي.

(٣) قال الأستاذ علي ذلك؛ لأن البلدية في دمشق تبيع الخبز للفقراء، كل كيلو بعشرة قروش، فالطن منه بمئة ليرة فقط!

(٤) ما اتفقوا عليه من طرق المعيشة.

تكون الحال لو كنت من الأثرياء الذين يخالطون الناس، ويقومون بحقوقهم؟! وكيف لو كان المولود صبيّاً بكراً؟!

ففكروا كم ننفق من الأموال في أشياء لا يأتي منها خير، وما في تركها ضرر، ونحن نشكو الفقر والمرض والجهل؟

أعرف رجلاً تزوج فأُهدي إليه يوم زفافه من أصدقائه وصديقاته وأقربائه وقريباته مئة وست عشرة باقة زهر، ثمن أدناها خمس ليرات، وقد يبلغ ثمن أعلاها العشرين، فحار أولاً أين يضعها، ومن أين يأتي لها بالكؤوس والأواني، ثم بدا له فجعلها حول سرير العروسين، فكان لها منظر رائع خلاب، ثم مرت الأيام ففسدت وجفت، فاستأجر رجلاً يحملها ليلقيها في إحدى المزابل!

ألف ليرة تلقى على مزبلة، ونصف الأمة يتضور جوعاً!!

وأعرف آخر من التجار؛ أبى له سفهه وتبذيره وكفره بنعم الله إلا أن يوزع السكر على نحو خمسمئة مدعو لحضور عقد ولده في علب من الفضة، في كل منها صحن من البلور، لا أدري من أين جاء بها؛ فما في بلدنا منها، قالوا: إن ثمن الواحد منها خمس عشرة ليرة، فهذه سبعة آلاف وخمسمئة ليرة، دون باقي المصروفات في الفرش والزينة والثياب، وإن من نساء هؤلاء التجار الفجار الأشرار من تشتري المعطف الواحد بألف ليرة، وإذا لم تصدقوا فاسألوا تجار الفرو.

والتبذير في أتراح هؤلاء الأغنياء لا يقل عنه في أفراحهم، فلا تخرج جنازة أحد حتى يمشي معها رجال المولوية(١) بقلانسهم(٢)

(١) هم طائفة من الصوفية ذات الأصل التركي في منشئها.

(٢) ما يضعونه على رؤوسهم.

التي تشبه علب اللبن، وثيابهم التي تحكي إذا داروا المخاريط الناقصة التي وصفوها لنا في درس الهندسة أيام المدرسة، ولا يمشون حتى يقبض شيخهم الرسم المقرر؛ خمسمئة ليرة، وأمام الجنازة الآس والحناء، وبعدها حفلة التنزيلة، ثم الصباحية والعصرية، وللنساء فيها كسوة خاصة، تُشترى من أجلها، فلا يصل الميت إلى القبر حتى ينفق عليه ـ إن كان من الموسرين ـ خمسة آلاف ليرة، ما أنفق قرش واحد منها في طاعة الله!

وإن حول كل دار من هذه الدور، التي تهدر فيها الأموال، لمساكن فيها ناس مثلنا من بني آدم من إخواننا في الدين، وفي الوطن، وفي اللسان، يشتهون عشر معشارها، أو أقلَّ منه؛ ليشتروا به طعاماً يملأ بطون أولادهم، وثياباً تستر أجسادهم، وإن لهؤلاء الناس ـ لو عرف الأغنياء ـ عيوناً تنظر كعيوننا، وقلوباً تتألم كقلوبنا، ولهم بنون وبنات هم قطع أكبادهم، وهم ـ على هلهلة ثيابهم ووساخة أبدانهم ـ أحبة إليهم، أعزة عليهم كعزة أولادنا علينا، وربما كانوا أزكى من أولادنا نفوساً وأطهر، وأذكى عقولاً وأمهر، وكانوا أرضى لله وأنفع للوطن منا، ولكن الفقر عطل قرائحهم، وكف أيديهم، وكبل أرجلهم.

إن هؤلاء وإن لم يكن في أعراسهم باقات الزهور، ولم يكن في جنائزهم مولوية ولا آس، ولم يعرفوا طريق المدارس والملاهي، ولم يزهوا بغالي الثياب، ولم يتمددوا على أرائك السيارات، ولم يعرفوا المشيخة التي يأكلون بها الدنيا بالدين! ولا الزعامة التي يجمعون بها المال بالوطنية! إنهم هم عماد هذا الوطن، وهم جمهرة أهله، وهم يزرعون القمح ويقدمونه إلينا، ثم يعيشون على الذرة والشعير!! وهم

يبنون لنا القصور، ثم يقيمون في الأكواخ مع البقر والحمير!! وهم يصنعون بأيديهم الشيكولاته التي لا يذوقونها! ويحيكون الثياب التي لا يلبسونها! وهم يسهرون في الطرقات ليحرسونا ونحن نيام! وهم يمشون إلى الميادين ليدافعوا عن أوطاننا ونحن آمنون! وهم قد دفعوا ثمن الاستقلال مهجهم وأرواحهم، ثم لم يأخذوا من خيراته شيئاً!!

إن هؤلاء هم ركن الوطن وعماده، وهم أهله وقُطَّانه(١)، فحرام علينا أن ننساهم ونهملهم، حرام أن تبقى هذه الأموال ضائعة، وهذه البطون جائعة، حرام في دين الله، وفي شرعة الإنسانية، وفي قانون الشرف؛ فأين المصلحون؟! فأين المصلحون؟! أين رجال الجمعيات؟! أين أرباب الأقلام؟!

لقد كنت أَصْفح أعداداً عتيقة من مجلة «الهلال»، فوجدت في أعداد منها أن في بلاد السويد جمعية اسمها «جمعية أمناء الأزهار»، عملها جمع الأموال التي يشتري بها أهل الميت وأصدقاؤه باقات الزهور التي تحمل مع الجنازة، ثم توضع على القبر، وإنفاقها في بناء مساكن صحية للعمال الفقراء، يسكنون فيها بأجر يسير، وإنها أنشأت إلى ـ تاريخ ذلك الخبر ـ نحواً من ألف مسكن!

فلماذا لا يكون فينا رجال مثل رجال هذه الجمعية؛ يأخذون المال من هنا، فيضعونه هناك، فيصلحون به أخلاق الأمة بإنقاذها من داء التبذير والأثرة والمفاخرة بالباطل، ويدفعون عن أغنيائها حسد فقرائها وبغضاءهم، ويعودون عليها بالخير لها في أجسادها وعقولها وصناعاتها وحضارتها؛ إذ ينفقون هذا المال فيما هو أولى به من وجوه الإصلاح؟!

---

(١) سكانه.

لماذا نأخذ من الأوروبيين السمَّ وندع الترياق[١]؟!

كم ينفق في الشام ومصر والعراق وسائر بلدان هذا الشرق الإسلامي في الزفاف وحفلاته، والمأتم وملحقاته، والأعياد والمواسم، وأيام الولادة والختان فيما لا ينفع أحداً البتة، ولا يعود عليه بعائدة، ولا تناله منه فائدة؟!

حَتّام[٢] تهدر الأموال ويراق الذهب؛ اتباعاً لعادات قبيحة، وتقليداً كتقليد القردة، وجمهور هذا الشعب يشكو الفقر والمرض والجهل؟!

هل تذهب بشاشة العيد ويمَّحي رواؤه لو اصطلح الناس فيه على تقديم السكر الملبَّس الوطني بدلاً من الشيكولاته، وصرفوا فرق الأثمان في بناء مدرسة أو مستشفى في كل بلد؟!

هل يبطل أنس العرس، وتضيع بهجته إذ لم يكن إلا باقتان من الزهر؟!

هل يكتب على العروسين الشقاء الدائم إذا وزعت الحلوى على المدعوين في قراطيس بدلاً من العلب؟!

هل يحرم الميت التقي من نعيم الجنة، ويضاعف على الشقي العذاب إذا لم يمش في جنازته رجال الطريقة المولوية، التي لا يقول بها عقل ولا نقل، ولا يقرها شرع ولا طبع؟!

فإلى متى نضيع أموالاً نحن اليوم أحوج إليها من كل يوم مضى؛ لأننا في عهد تجديد وبنيان، ولأننا في أول طريق الاستقلال؟!

---

(١) الدواء.

(٢) إلى متى؟

فيا أيها الأغنياء: لا تغتروا، فإن النعم لا تدوم، وإن بعد اليوم غداً، وإن بعد الحياة موتاً، وإن بعد الموت لحساباً عسيراً أمام رب الأرباب، الذي خلقكم وخلق الفقراء من طينة واحدة، ولم يخلقهم من التراب ويخلقكم من الإسمنت المسلح!! ولم يميزكم عنهم إلا بمال أعاركموه؛ ليكون محنة لكم، وليطول عليه حسابكم.

ويا أيها المصلحون: هذا باب من أوسع أبواب الإصلاح فَلِجُوه[١]، بارك الله فيكم ـ إن فعلتم ـ وأيدكم.

ويا رب: منك أنت التوفيق، فأعط المخلصين مقدرة، وأعط القادرين إخلاصاً؛ فإننا نشكو إليك شكاة عمر: ضعف التقي، وفجور القوي!![٢]

(١) ادخلوه.

(٢) مجلة الرسالة: العدد ٦٦٨، ١٣٦٥هـ، ص ٤٣١، ٤٣٢.

بيان حال أهل المدن وانغماسهم في الترف وأثر ذلك عليهم

يقول ابن خلدون[١] ـ رحمه الله تعالى ـ مبيناً أثر الترف في أهل المدن خاصة، والفرق بينهم وبين أهل البادية وأهل القرى البعيدة عن العمران الراقي، الآخذ بأسباب الحضارة، فيقول:

«الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها، والحضارة ـ كما علمت ـ هي التفنن في الترف، واستجادة أحواله، والكَلَف[٢] بالصنائع التي تؤنِّق من أصنافه وسائر فنونه، من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفُرش أو الآنية، ولسائر أحوال المنزل، وللتأنق في كل واحد من هذه

(١) **ابن خلدون**: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، أصله من إشبيلية، وولد بتونس سنة ٧٣٢هـ ونشأ بها، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالاً، واعترضته وشايات ودسائس ثم عاد إلى تونس، ارتحل إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق وولي فيها قضاء المالكية، ثم عزل وأعيد، توفي فجأة بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ، رحمه الله تعالى، وكان فصيحاً، عاقلاً، صادق اللهجة، طامحاً للمراتب العالية، له عدة كتب. انظر: «الأعلام»: ٣/ ٣٣٠.

(٢) التعلق.

صنائع كثيرة لا يُحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنُّق فيها.

وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات، فتتلون النفس من تلك العوائد[١] بألوان كثيرة، لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها، أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها، وأما دنياها؛ فلكثرة الحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد ويُعجز ويَنْكُب[٢] عن الوفاء بها».

ثم يقول مبيناً أثر تلك العادات ـ ويسميها عوائد ـ على الناس:

«تعظم نفقات أهل الحضارة، وتخرج عن القصد[٣] إلى الإسراف، ولا يجدون وليجة[٤] عن ذلك؛ لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها، وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات، وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف، وهذه مفسدات في المدنية على العموم في الأسواق والعمران.

وأما فساد أهلها في ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوائد، والتلون بألوان الشر في تحصيلها، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها؛ فلذلك يكثر فيهم الفسق، والشر، والسَّفْسَفة، والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه، وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه، واستجماع الحيلة له، فتجدهم أجرياء[٥] على

---

(١) العادات.

(٢) ويُنصرف.

(٣) الاعتدال.

(٤) لا يجدون مخرجاً ولا دافعاً.

(٥) «أجرياء»: جمع جريء.

الكذب، والمقامرة، والغش، والخِلابة[1]، والسرقة، والفجور في الأيمان، والربا في البَيَاعات، ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه، والمجاهرة به وبدواعيه، واطِّراح الحشمة في الخوض فيه، حتى بين الأقارب وذوي المحارم الذين تقتضي البداوة الحياء منهم... وتجدهم أيضاً أبصر بالمكر والخديعة، يدفعون بذلك ما عساه أن ينالهم من القهر، وما يتوقعون من العقاب على تلك القبائح، حتى يصير ذلك عادة وخلقاً يصير لأكثرهم، إلا من عصمه الله، ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة، وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها؛ وهو معنى قوله تعالى:

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٦].

ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها؛ لكثرة الترف، فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ، فيفضي ذلك إلى فساد النوع، فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والترف، وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم.

إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد؛ لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه، ودفع مضاره، واستقامة خلقه للسعي في ذلك، والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته، إما عجزاً لما حصل له من الدعة، أو ترفعاً لما حصل له من

---

(١) الخداع.

المَرْبى في النعيم والترف، وكلا الأمرين ذميم. . . ثم هو فاسد أيضاً ـ غالباً ـ بما فسدت منه العوائد وطاعتها، وما تلونت به النفوس من مكانتها كما قررناه، إلا في الأقل النادر، وإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته، وصار مسخاً على الحقيقة»[١].

وكلام ابن خلدون، وإن كان فيه شيء من التعميم والخلط، لكنه صادق في الجملة على أكثر الطوائف، وهو مصور على وجه بديعٍ صورةَ الحياة في أوائل القرن التاسع، وهذا يعرفنا لماذا سهل على الاستخراب العالمي ـ الاستعمار ـ بعد ذلك أن يجتاح العالم الإسلامي ويمزق شمله؛ لأن حال أكثر أهله، ومن يفترض فيهم أنهم هم أهل القوة والدفاع عن المدائن هو كما صوره ابن خلدون، فاللهم رُحْماً.

واليوم فقد مس أهلَ البداوة شيءٌ كثير من التحضر، والأخذ بأسباب الرفاهية، حتى خيف عليهم اللحاق بأهل المدن والحواضر في ترفهم وضعفهم وتقاعسهم وكسلهم، وهذا الأمر منذر بعواقب وخيمة إن لم يستدرك ويعالج، والله أعلم.

تلك كانت أمثلة للترف الذي استشرى في أمم وشعوب قديماً وحديثاً، فأفقدها عزها، ودمر قواها، وأورثها الوهن والهوان، ونحن في المجتمعات الإسلامية اليوم بحاجة إلى تدبر هذا وفهمه، والبعد عما سبَّبه وجرَّ إليه، والمجتمعات الإسلامية مخاطبة بهذا خطاباً عامّاً، والمجتمعات الخليجية مخاطبة خطاباً خاصّاً، فالناس في هذه المجتمعات الخليجية ـ سواء أكانوا مواطنين، أم مقيمين ـ قد غلب عليهم التوسع في المباحات، والركون إلى اللذائذ والشهوات،

---

(١) «مقدمة ابن خلدون»: ٣٧٢ ـ ٣٧٤.

وصاروا قادرين أكثر من غيرهم من سائر المسلمين بكثير على تحصيل ما تميل إليه نفوسهم وتتطلع إليه رغباتهم، فهم بهذا قد تعرضوا للترف تعرضاً يُخاف عليهم معه آثاره، ويخشى عليهم منه آفاته، والأمر مشاهد معلوم لا يحتاج إلى كثير تدليل، ولا إلى حشد براهين.

والدعاة والصالحون جزء من هذا النسيج الخليجي المترف، فالخوف كل الخوف أن يقعوا في دائرة الترف ـ وقد حصل هذا لعدد منهم ليس بالهين ـ فيبتعدوا عن المعاني العلية والأمور العلوية، ويتمرغوا في ساحات السفاسف، ويرتعوا في عرصات الدنايا، وهم مطالبون بالحذر أكثر من غيرهم، والاحتياط زيادة على احتياط من عداهم، وإلا فلات ساعة مندم، وتفصيل هذا الترف الواقع عليهم سيأتي في ثنايا الرسالة إن شاء الله تعالى.

المبحث الرابع
آثار الترف في العاملين

للترف آثار مهلكة ضارة، تنهش أجساد وعقول وقلوب العاملين من الدعاة وطلبة العلم والعلماء وسائر الصالحين، وتقلل جهودهم، وتضعف حركتهم، وتحبب الدنيا إليهم، وترغبهم فيها، وتطيل أملهم، والخطر كل الخطر أن يهاجم الترف أولئك، وهم صفوة الأمة وخلاصتها، ووجهها المضيء، ومتعلق آمالها، وقبلة توجهاتها، ومحل سرها، ومكمن قوتها، فإذا فعل الترف فعله بأولئك فكبر على سائر الأمة أربعاً، ولا ترجو منها شيئاً؛ لذلك كله وجب العمل على محاربة الترف بأسلحة الجد والاجتهاد، والزهد والاخشيشان، والتقوى والإيمان، قبل أن نندم، ولات ساعة مندم.

ومما ينبغي معرفته أن الترف لا يهجم دفعة واحدة، ولا يجرد أسلحته كلها تجريداً مجتمعاً، بل هو أشبه بالأمراض التي تغزو الأجساد غزواً بطيئاً، ثم تمكث فيه زماناً مكيثاً طويلاً قبل أن تبدو أعراضها وتعمل جراثيمها، والترف يتدرج بالأمة شيئاً فشيئاً، وجانباً تلو جانب، وركناً إثر ركن؛ حتى يأتي على بنيانها من القواعد، ويُخِرَّ عليها سقف الأماني والأحلام، لتجد نفسها وقد ابتعدت شوطاً طويلاً عن المعالي، ولم تقدم شيئاً يذكر إلا التواني، والبكاء على الأطلال

والمغاني، والتعلق بما كان عليه الأجداد، وغض الطرف عما عليه الأنداد، من الجد والاجتهاد، والسبق والإعداد.

وآثار الترف كثيرة متنوعة، لكني سآتي على أبرزها ـ فيما أظن وأرى ـ وأهمها وأعظمها تأثيراً في سائر الورى، فمن ذلك ـ أبعدنا الله وإياكم عما هنالك، وحمانا من سائر المهالك ـ:

الأثر الأول: الغفلة عن درجات الآخرة العالية:

وهذا مرض عظيم، وذلك أن المرء المترف لا يعود يرى إلا لذائذه وشهواته، ويتقلب في الترف ظهراً لبطن، والدرجات العاليات لا تنال إلا باجتهادات ورياضات للنفس طويلة، نحو صيام وقيام، ودعوة وحركة، وسد للثغرات الكثيرة في جسد الأمة المنهك، وما ينبني من جراء ذلك من عمل طويل وإتعاب للجسد وإشغال للعقل والقلب، وكل هذه الأعمال لا يمكن أن يأتيها المترف فتفوته المنازل العالية، ولات ساعة مندم.

قال ابن القيم[١] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«قال لي يوماً شيخ الإسلام[٢] ـ قدس الله روحه ـ في شيء من المباح:

---

(١) **ابن القيم**: هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرعي الدمشقي، الشيخ الإمام، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي، ولد سنة ٦٩١هـ، كان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف، وكان كثير التلاوة والصلاة، حسن الخلق، كثير التودد، توفي ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ٧٥١هـ بدمشق، وكانت جنازته حافلة. انظر: «الدرر الكامنة»: ٤/ ٢١ ـ ٢٣.

(٢) يعني أستاذه أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، شيخ الإسلام، وأحد أئمة المسلمين المجتهدين، وينسب إلى تيمية جدته، له المصنفات النافعة المشهورة، والمواقف الجهادية المشهورة في مقابلة التتار سنة ٧٠٢هـ بدمشق، توفي مسجوناً سنة ٧٢٨هـ، رحمه الله تعالى. «انظر الدرر الكامنة»: ١/ ١٥٤ ـ ١٧٠.

هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة، فالعارف يترك كثيراً من المباح برزخاً بين الحلال والحرام»(١).

وهذا الذي لام عليه شيخ الإسلام تلميذه «شيء من المباح»؛ فما بالكم بما نراه اليوم من تمتع الدعاة بمباحات ونعيم لا يعرفه الملوك السالفون، وترف لم يترفه الأغنياء الماضون؟!

الأثر الثاني: التعلق بمباهج الحياة ونسيان الهدف منها:

وذلك أن المرء إن تقلب في المباهج وذاقها تعلق بها أيما تعلق، وملكت عليه حياته، وصار لا يستطيع التخلص منها، بل لا يريد، وأصبحت همته متعلقة بالازدياد من تلك المباهج، والاجتماع على تلك المسرات، حتى يعد في عِدَاد المترفين، وينظم في سلكهم، ويقفو أثرهم؛ لذلك حذرنا الله تعالى من هذه الحياة الدنيا أشد تحذير، فقال الله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال جل من قائل:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال ﷺ محذراً أصحابه رضي الله عنهم والأمة كلها من بعدهم:

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/٢٦.

«فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»(١).

وللتعلق بمباهج الحياة صور، أذكر منها التالي:

أولاً: التوسع في المآكل والمشارب:

إن من أسباب الترف التوسع في المآكل والمشارب، والتفنن في إعداد الطعام وتزيينه، والإكثار من الحديث عنه والتفاخر به، والبحث عن أطايبه، والتنادي إلى كل ذلك، والاجتماع عليه، والتواصي به، والله تعالى لم يحرم علينا ما ذكرت، لكن كرهه لنا، وأراد منا الارتفاع عن كل ذلك، والتعلق بما هنالك، من النعيم المقيم، والتمتع الدائم؛ لذلك قال جل من قائل: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

ولعمر الحق، إن ما ذكرته آنفاً يعد نوعاً من الإسراف، ودافعاً للنفس إلى الاستشراف، ومضيعاً لها في أودية المتع، وصادّاً لها عن سبل المجد.

وقد كان الحبيب الأعظم ﷺ بخلاف كل ذلك التعلق بأنواع المطاعم والمشارب، بل كان ينقطع عن التلذذ بالطعام أياماً، فيكتفي منه بأقل القليل ﷺ، وقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

«إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أَهِلَّة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فيقول لها عروة ـ ابن أختها ـ: ما كان يعيشكم؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس منها؛ ومسلم في صحيحه: كتاب الزهد والرقائق، واللفظ له.

قالت: الأسودان: التمر، والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كان لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقيناه»(١).

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بُر ثلاث ليال تباعاً حتى قُبض»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم الشعير»(٣).

وهذا عمر الفاروق يدخل على ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فرأى عنده لحماً، فقال: ما هذا اللحم؟! قال: اشتهيته، قال: «وكلما اشتهيت شيئاً أكلته؟! كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كل ما اشتهاه!»(٤).

وقد سار عمر على هذا الطريق في تربية نفسه، فقد قال أحد التابعين:

«كنت أتغدى عند عمر رضي الله عنه الخبز والزيت والخل، والخبز واللبن والقديد، وأقل ذلك اللحم الغريض»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، و«منائح»: جمع منيحة؛ وهي الشاة التي تُعار لشرب لبنها، ثم تُردُّ إلى صاحبها إذا انقطع عنها اللبن.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وقال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا: أخرجه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ومعنى طاوياً؛ أي: خالي البطن جائعاً؛ وانظر: «الفتح الرباني»: ٢٢/ ٧٦.

(٤) «آفات على الطريق»: ١/ ٥، وقد نقله المصنف عن «حياة الصحابة» للكاندهلوي ٢/ ٢٨٤، ٢٨٥.

(٥) اللحم اللين، والقديد: اللحم المجفف.

وقال رضي الله عنه: «لأنا أعلمكم بخفض العيش[١]، ولو شئت لكنت أطيبكم عيشاً، إني والله ما أجهل عن أسنمة وصلاء، وصنابٍ وصلائق، ولكني أستبقي طيباتي، فإن الله تعالى وصف أقواماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]»[٢].

وليس التمتع بما ذكر الفاروق حراماً، لكنه كان يريد أن يدرك منزلة صاحبيه، رضي الله عنه وعن أبي بكر، وصلى الله على رسوله وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وكان يربي أصحابه على هذا المنهج؛ إبعاداً لهم عن الترف واخشيشاناً.

والقاعدة في باب الطعام والشراب المبعدة للآخذ بها عن الترف ـ إن شاء الله تعالى ـ هي ما قاله الإمام أبو بكر بن العربي[٣] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«والذي يضبط لك هذا الباب، ويحفظ قانونه على الميزان: يأكل ما وجد، طيباً كان أو قفاراً[٤]، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة، فقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر

---

(١) العيش الهني.

(٢) «قمع الحرص بالزهد والقناعة»: ١٧٨، والآية من الأحقاف: ٢٠، «**والأسنمة**»: جمع سنام، وهو الموضع المعلوم من الإبل، **والصلاء**: المشوي، **والصناب**: الأصبغة المتخذة من الخردل والزبيب، **والصلائق**: الخبز الرقاق العريض.

(٣) **أبو بكر بن العربي**: الإمام العلامة، الحافظ، القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد، ابن العربي الأندلسي الإشبيلي المالكي، صاحب التصانيف، ولد سنة ٤٦٨هـ، وكان ثاقب الذهن، عذب المنطق، كريم الشمائل، توفي سنة ٥٤٣هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ١٩٧ ـ ٢٠٤.

(٤) شديداً غير مشتهى.

عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يتعهده أصلاً، ولا يجعله ديدناً، ومعيشة النبي ﷺ معلومة، وطريقة الصحابة منقولة»[١].

وكان هذا الذي ذكره ابن العربي ـ رحمه الله تعالى ـ علامة على المسلمين، يُعرفون بها، ولا يخرجون عنها في جموعهم؛ حتى حصل لهم ما حصل من التغير والفساد، والله المستعان.

شبع المترفين:

وهذا التوسع يجرُّ إلى آفة عظيمة؛ وهي الشبع وتناول الزائد عن الحاجة، وقد قال ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاء شرّاً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه**»[٢]، وتحقيق هذا الأمر ليس بالسهل، ودونه ترويض للنفس طويل، لكن لا بد منه إن أراد المرء الابتعاد عن آفات الشبع واتباع السنة في طعامه.

وقال عمر رضي الله عنه:

«إياكم والبطنة في الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما فإنه أصلح للجسد،

---

(١) قمع الحرص بالزهد والقناعة (٢٠٥).

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب الزهد، باب ما جاء في هديه في الأكل، وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ وانظر: مقالة د. عبد الجواد الصاوي في مجلة «الإعجاز»، الصادرة عن هيئة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، التابعة لرابطة العالم الإسلامي، عدد ١٢ صفر سنة ١٤٢٣هـ، ففيها كلام جميل في شرح هذا الحديث، وربطه بالعلوم الحديثة.

وأبعد منه السرف، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه»[١].

وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ:

«ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا مرة، فأدخلت يدي فتقيأتها؛ لأن الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف عن العبادة»[٢].

وقال أبو سليمان الداراني[٣]: «لكل شيء صدأ، وصدأ القلب الشبع»[٤].

وهذا أحد العباد يقول:

«كم من أكلة منعت قيام ليلة»[٥]؛ وذلك بسبب ثقل الجسم والخمول الناشئ عن الامتلاء.

وهذا شيخ من شيوخ السلف يقف على طلابه فيقول:

«لا تأكلوا كثيراً، فتشربوا كثيراً، فترقدوا كثيراً، فتتحسروا عند الموت كثيراً»[٦].

وسبب التحسر هنا هو قلة الحسنات بسبب الغرق في المباحات.

وكانت قلة الشبع هذه، وعدم الاحتفال الزائد بالطعام والشراب

---

(١) «كنز العمال»: ١٥/ ٤٣٣، ونسب الأثر إلى أبي نعيم.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٣٦.

(٣) **أبو سليمان الداراني**: زاهد عصره، عبد الرحمن بن أحمد العنسي الداراني، ولد في حدود سنة ١٤٠هـ، وتوفي سنة ٢١٥هـ، رحمه الله تعالى. انظر: نزهة الفضلاء (٢/ ٧٥٢، ٧٥٣).

(٤) المصدر السابق: ٢/ ٧٥٣، مجلة لواء الإسلام: العدد السادس، ١٣٨٢هـ، (٣٨٧).

(٥) «إحياء علوم الدين»: ١/ ٣٥٦، نقلاً عن «آفات على الطريق»: ٢/ ١٧١.

(٦) المصدر السابق.

سمة للمسلمين، ولما دخلت جيوش المسلمين أرض مصر استوصف حاكمها جند المسلمين، فوصفوهم بأنهم لا يملؤون بطونهم، وبأنهم يأكلون وهم مستعدون للقيام، فقال:

«اتركوا هؤلاء؛ فإنهم لا يُغلبون أبداً»(١).

والأخبار التي رُويت عن سلفنا في هذا الباب كثيرة متنوعة، يصلح إيرادها لمن كان يطيل الشبع من المترفين النهمين:

قال سفيان بن عُيَيْنة(٢):

«جاع سفيان الثوري(٣) جوعاً شديداً، مكث ثلاثة أيام لا يأكل شيئاً، فمر بدار فيها عرس، فدعته نفسه إلى أن يدخل، فعصمه الله، ومضى إلى منزل أخته فأتته بقرص فأكله وشرب ماء»(٤)، وقوله: «فعصمه الله»؛ لأنه لا يليق بمثل سفيان أن يدخل إلى الأعراس من أجل الطعام، أو لعله قد كان في ذلك الفرح من المنكر ما لا يسوغ معه الدخول إليه.

وقال أبو شهاب الحنَّاط(٥):

---

(١) مجلة لواء الإسلام: العدد السادس: ١٣٨٢هـ ص٣٨٧.

(٢) **سفيان بن عيينة** بن ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي، ثم المكي، ثقة، حافظ، فقيه، إمام، حجة، تغير حفظه في آخر حياته، توفي سنة ١٩٨هـ، وله إحدى وتسعون سنة، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ٢٤٥.

(٣) **سفيان الثوري**: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله الكوفي، ثقة، حافظ، فقيه، عابد، إمام، حجة، مات سنة ١٦١هـ، وله أربع وستون سنة، رحمه الله تعالى. انظر: المصدر السابق ٢٤٤.

(٤) «صلاح الأمة» ١/ ١٩١، نقلاً عن «حلية الأولياء»: ٦/ ٣٧٣.

(٥) **أبو شهاب الحناط**: موسى بن نافع الأسدي ـ ويقال: الهذلي ـ أبو شهاب الحناط، مشهور بكنيته، بصري، صدوق. انظر: «التقريب»: ٥٥٤.

«بعثت أخت سفيان الثوري معي بجراب إلى سفيان وهو بمكة، فيه كعك وخُشْكنانج[١]، فقدمت مكة، فسألت عن سفيان، فقيل لي: إنه ربما يقعد دبر الكعبة مما يلي باب الحناطين، فأتيته هناك ـ وكان لي صديقاً ـ فوجدته مستلقياً، فسلمت عليه، فلم يسائلني تلك المساءلة، ولم يسلم عليَّ كما كنت أعرف منه! فقلت له: إن أختك بعثت إليك معي بجراب فيه كعك وخشكنانج، قال: فعجِّل به علي!! واستوى جالساً، فقلت: يا أبا عبد الله، أتيتك وأنا صديقك، فسلمت عليك، فلم ترد عليَّ ذلك الرد، فلما أخبرتك أني أتيتك بجراب كعك لا يساوي شيئاً جلست وكلمتني؟! فقال: يا أبا شهاب، لا تلمني، فإن هذه لي ثلاثة أيام لم أذق فيها ذواقاً!! قال أبو شهاب: فعذرته»[٢].

الله أكبر! ما أطول صبرهم؟!

هذا؛ وقد كان يجاهد نفسه هذه المجاهدة وهو غريب في مكة؛ من أجل طلب الحديث والتفرغ له، وقطع العلائق التي تصد عنه، ولو كان يملك مالاً لأكل، لكنه كان فقيراً رحمه الله تعالى.

وقال إبراهيم الحربي[٣] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«أفنيت من عمري ثلاثين سنة برغيفين، إن جاءتني بهما أمي أو أختي، وإلا بقيت جائعاً إلى الليلة الثانية! وأفنيت ثلاثين سنة برغيف

---

(١) خبزة تصنع من خالص دقيق الحنطة، وتملأ بالسكر واللوز أو الفستق، وتقلى؛ وهي كلمة فارسية معربة. انظر: «المعجم الوسيط»: ١/ ٢٤٥.

(٢) «صلاح الأمة»: ١/ ١٩١، ١٩٢.

(٣) **إبراهيم بن إسحاق** البغدادي الحربي، نسبة إلى محلة ببغداد، صاحب التصانيف، كان إماماً في العلم، رأساً في الزهد، عارفاً بالفقه، بصيراً بالأحكام، حافظاً للحديث، قيماً بالأدب، صنف كتباً كثيرة، توفي ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ٢٨٥هـ ببغداد.

في اليوم والليلة إن جاءتني امرأتي أو بناتي به، وإلا بقيت جائعاً عطشان! والآن آكل نصف رغيف وأربع عشرة تمرة إن كان بَرْنياً[(١)]، أو نيفاً وعشرين إن كان دَقَلاً[(٢)]!!»[(٣)].

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ:

«ما كنا نعرف من هذه الأطبخة شيئاً، كنت أجيء من عَشِيٍّ إلى عَشِيٍّ وقد هيأت لي أمي باذنجانة مشوية، أو لعقة بِنٍّ[(٤)]، أو باقة فجل!!»[(٥)].

وقال أحد أصحابه:

«كنت يوماً جالساً مع إبراهيم الحربي على باب داره، فلما أن أصبحنا قال لي: يا أبا علي! قم إلى شغلك، فإن عندي فجلة قد أكلت البارحة خَضِرَها، أقوم أتغدى بجزرتها!!»[(٦)].

وهذا الحافظ حجاج بن يوسف[(٧)] يقول:

«جمعت لي أمي مئة رغيف، فجعلتها في جراب، وانحدرت إلى شَبابة[(٨)]

---

(١) **البَرْني**: نوع من التمور، مدور، أحمر مشرب بصفرة. انظر: «المعجم الوسيط»: ب ر ن.

(٢) **الدقل**: أردأ التمر. انظر: المصدر السابق: د ق ل.

(٣) «صلاح الأمة»: ١/ ٢٨٨.

(٤) **البِنُّ**: الشحم.

(٥) المصدر السابق: ١/ ٢٨٨.

(٦) المصدر السابق: ١/ ٢٨٩.

(٧) **الحافظ حجاج بن يوسف**: الثقفي البغدادي، المعروف بابن الشاعر، ثقة، حافظ، مات سنة ٢٥٩هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ١٥٣.

(٨) **شبابة** بن سَوَّار المدائني، أصله من خراسان، مولى بني فزارة، ثقة، حافظ، مات سنة أربع أو خمس أو ست ومئتين هجرية، رحمه الله تعالى. انظر المصدر السابق: ٢٦٣.

بالمدائن، فأقمت ببابه مئة يوم، أغمس الرغيف في دجلة وآكله، فلما نفدت خرجت»[١].

فهؤلاء العظام قد ملكوا أنفسهم، وتغلبوا على شهوة تناول الطيب من الطعام والحسن من الشراب، والإكثار منهما، وهما من أشد الشهوات فتكاً وتأثيراً، ولهما على النفس مداخل متعددة تسوقها إلى منحدرات لا تليق بها ولا تنبغي لها، ولما ملكوا أنفسهم هذا المِلك استطاعوا أن يرتقوا ارتقاء عجيباً في العلم، ويرتفعوا إلى أعظم منازله، هذا عدا المراتب الإيمانية العالية التي تسنموا ذُرَاها، وضربوا فيها أعظم الأمثلة.

محاذير أخرى:

والتوسع في المآكل والمشارب يفضي إلى محاذير أخرى غير ما ذكرته، فمن ذلك:

١ ـ التعود على نظام الوجبات الثلاث:

وهذا حاصل في المجتمع، حتى إن من أكل في اليوم والليلة أكلتين تعجب منه كثير من الناس، ورأوا أنه قد أخل بشيء مهم!! والعاقل لا يأكل حتى يشعر بالحاجة، لا لأنه اعتاد الأكل، وقد كان النبي ﷺ يأكل إذا كان جائعاً ووجد طعاماً، لا يقيد طعامه بزمان معين محدد لا يحيد عنه، فإن لم يجد طعاماً صام ﷺ، وكان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً؛ أي: خالي البطن جائعاً ﷺ، وهكذا كانت أكثر أحواله ﷺ؛ تقلل من الطعام، وأَكْلٌ لما حضر وتيسر منه، وهذا لا ينافي أنه كان يحب اللحم والحلوى والعسل والدُّبَّاء وأطايب

(١) «صلاح الأمة»: ١٠/ ٢٩٢.

الطعام، لكن ما ذكرته من التقلل كان أكثر أحواله ﷺ، وقد بقي على هذا التقلل والتقشف جماعات كبيرة من السلف والخلف.

وهذا الإمام أبو المعالي الجويني[١]؛ إمام الحرمين، يقول عن نفسه:

«أنا لا أنام ولا آكل عادة، وإنما أنام إذا غلبني النوم، ليلاً كان أو نهاراً، وآكل الطعام إذا اشتهيت الطعام، أي وقت كان»[٢].

والمعروف من عامة العرب قديماً أنهم كانوا يتغدون ويتعشون، أما الغداء ففي الغدو أول النهار، وأما العشاء ففي المساء قبل الغروب أو بعده، لا شيء سوى ذلك، وعلى هذا أهل البلاد الباكستانية اليوم فيما أخبرني به أحدهم؛ وهو أمر معقول مقبول، ومعين على التعبد والتيقظ، والله أعلم.

٢ ـ عدم القدرة على صيام التطوع أو التهاون في شأنه:

اعتياد الناس التوسع والتفنن في المآكل والمشارب صادٌّ لهم عن صيام التطوع، وهذا ملحوظ مشاهد، وطبقات الصالحين والدعاة في حاجة ماسة لفهم هذا الأمر، فهم أهله وأولى الناس به، والتقصير في صيام التطوع ظاهر فيهم متفشٍّ، وكم من لقاءات للصالحين تعقد يوم الإثنين والخميس، فإذا بك تجد أن الأغلب الأكثر غير صائم، وهذا أمر غير محمود تفشيه واعتياده، ناهيك عن نسيان أكثر الناس صيام الأيام البيض من كل شهر.

---

(١) الإمام الكبير شيخ الشافعية، إمام الحرمين، أبو المعالي عبد الملك بن الإمام عبد الله بن يوسف الجويني، ثم النيسابوري، ضياء الدين الشافعي، صاحب التصانيف، ولد في سنة ٤١٩هـ، وتوفي سنة ٤٧٨هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ٤٦٨ ـ ٤٧٧.

(٢) «صلاح الأمة»: ١/ ٤١١، نقلاً عن طبقات الشافعية للسبكي، الجزء الخامس.

نعم إن الصيام غير واجب، لكنه يساعد على تهذيب شهوات النفس وردعها عن كثير من محبوباتها الصادة لها عن بلوغ المعالي، وكان النبي ﷺ كثير الصيام، وكذلك كان عدد من الصحابة ﷺ، وحسبنا بهم أسوة، ولم يكن سلفنا ﷺ إلا كذلك، فهذا داود بن أبي هند[١] ـ رحمه الله تعالى ـ قد صام أربعين سنة لا يعلم به أهله ولا أحد، وكان خزازاً[٢]، يحمل معه غداءه من عندهم، فيتصدق به في الطريق، ويرجع عشياً فيفطر معهم، فيظن أهل السوق أنه أكل في البيت، ويظن أهل البيت أنه قد أكل في السوق.

وهذا عمرو بن قيس المُلائي[٣] أقام عشرين سنة صائماً ما يعلم به أهله، يأخذ غداءه ويغدو إلى الحانوت، فيتصدق بغدائه، ويصوم وأهله لا يدرون[٤].

الله أكبر، هؤلاء هم العظماء حقاً، الذين ساسوا أنفسهم سَوْساً عجيباً، فكان الترف منهم بمكان بعيد؛ ولذلك ساد المسلمون زماناً طويلاً، وارتقوا رقياً عجيباً في شتى مناحي الحياة.

٣ ـ ضعف الورع:

النهم في طلب الطعام والشراب، والتفنن في صنعه، والإكثار من

---

(١) **داود بن أبي هند**: القشيري بالولاء، أبو بكر ـ أو أبو محمد ـ البصري، ثقة، متقن، إلا أنه كان يَهِمُ في آخر حياته، مات سنة ١٤٠هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ٢٠٠.

(٢) بائع خز؛ وهي الثياب.

(٣) **عمرو بن قيس الملائي**: أبو عبد الله الكوفي، ثقة، متقن، عابد، مات سنة بضع وأربعين ومئة هجرية، رحمه الله تعالى. انظر المصدر السابق: ٤٢٦.

(٤) «صلاح الأمة في علو الهمة»: ١/ ١١٥، نقلاً عن صفة الصفوة.

تتبع أنواعه وصنوفه قد يضعف الورع، ويوقع في الولوع في أطعمة مشتبهة، وقد يؤدي إلى تتبع موائد الأغنياء وطعام الكبراء، والانغماس في ولائم من يعدون من علية المجتمع ومن الطبقة الرفيعة، وهنا ينسى المرء قواعد الورع ويضل عنها، وقد يحرص على جلب ما استحبه من طعام القوم وألفته نفسه، وهو لا يملك ثمنه، فيزل عن الحلال إلى الحرام، أو من التقوى والورع إلى الولوع في المشتبهات، والعياذ بالله.

٤ ـ تضييع بعض المواعيد أو التأخر عنها:

وهذا أيضاً مشاهد، وكم من لقاءات تتم بعد صلاة العصر فيتغيب عنها أو يتأخر بعض المشاركين، فإذا سألته، قال: خرجت من وظيفتي إلى البيت لأتناول طعام الغداء ثم جئتكم!! وهذا عجيب منه، أفلم يكن يستطيع أن يتناول شيئاً كيفما اتفق ليستغني به ويكتفي، أو أن يصوم ذلك اليوم فيكسب الأجرين: أجر الصيام وأجر إدراك الموعد؟ لكنه الارتباط المعيب بالأكل والشرب على نظام محدد، لا يستطيع الانفكاك منه ولا التحول عنه، أو أنه الاستجابة لشهوات النفس استجابة يضيع معها سبيل المعالي، والأمر الشاق على أنفس الحاضرين المنتظرين أن بعضهم قد ترك طعامه ليوفي بوعده، فإذا هو يفاجأ بمثل هذا المتأخر عن موعده أو المضيع له بسبب الطعام والتعلق به، وأخشى أن يكون فعل هذا مؤثراً على المروءة، خارماً لها، وأخشى أيضاً أن يكون غير جائز شرعاً التأخر عن الموعد بسبب تناول الطعام إلا أن يكون مضطراً لتناوله في بيته، والله أعلم[١].

(١) انظر: رسالة «ظاهرة التهاون بالمواعيد» لكاتب هذه السطور، ففيها تفصيل لهذا الأمر.

ثانياً: التوسع في النوم[١]:

وهذا الأمر من أكثر ما يصد الدعاة والصالحين عن المعالي، ويرغبهم في القعود عنها، ويعودهم الترفه المفضي إلى الترف والدعة.

والنوم من حاجات المرء التي لا يستطيع إلا أن يوفيها حقها، لكن الأمر قد يرتفع عن الحاجة ليصبح كسلاً وفتوراً وضعفاً، وهذا بسبب ازدياد ساعات النوم وتعدد مراته، وإني لأعرف بعض الصالحين ينام مبكراً، ثم بعد الفجر ينام، ثم ينام قبل العصر أو بعده، ليبلغ مجموع ما ينامه قرابة نصف يوم وليلته؛ أي: قرابة نصف عمره، فكم ضيع هذا من حياته؟!

وهناك بعض الجوانب المهمة في قضية النوم؛ إن أُسيء فهمها أو تجاوز المرء فيها، ضيعت عليه جانباً مهماً من حياته، فمن ذلك:

١ ـ الاعتقاد بوجوب النوم ثماني ساعات لا تنقص:

وهذا بسبب كلام بعض الأطباء في هذه القضية، وتنبيههم على وجوب أن يفسح المرء لنفسه ويسمح لها بهذه الساعات؛ حتى تكتمل قوته، وكلامهم هذا منقوض بأمور، منها:

أ ـ اختلاف حال الأشخاص:

إذ بعض الأشخاص لا يجد في نفسه الحاجة لهذا العدد من الساعات، وهذا مشاهد مجرب معلوم، فإذا ألزمناه بهذه الساعات الثماني، أو التزمها هو للوهم الذي أدخله في نفسه الأطباء ضيع عليه من حياته ساعات كان يمكن له أن يستفيد منها أيما استفادة.

---

(١) قد مر (أولاً)، وهو التوسع في المآكل والمشارب.

ب ـ اختلاف البيئات:

فالبلاد ذات المناخ البارد تختلف عن ذوات المناخ الحار، والبلاد المزدحمة المتوترة تختلف عن البلاد الساكنة الهادئة، وما يحتاجه هذا هاهنا قد يختلف عن حاجة ذلك هنالك، وهكذا.

جـ ـ اختلاف الأعمار:

فما يحتاجه الشاب من ساعات النوم يختلف عما يحتاجه الكهل أو الشيخ الكبير.

د ـ اختلاف الأعمال:

فما يحتاجه العامل أعمالاً شاقة صعبة يختلف عما يحتاجه الذي يبذل جهداً أقل، والعامل ببدنه يختلف عن العامل بجهده الفكري أو العلمي.

هـ ـ المشاهدة والتجربة:

وذلك أننا نشاهد من حال أشخاص أنهم يكتفون من النوم بساعات خمس، أو أقل قليلاً أو أكثر قليلاً، وقد يداومون على ذلك طوال حياتهم فلا يجدون نقصاً، ولا يحسُّون تغييراً في قواهم ومداركهم، وهذا كله يدل على انتقاض نظرية الساعات الثماني.

٢ ـ عدم فهم قضية البركة في الأوقات:

الدعاة والصالحون وطلبة العلم إن أخلصوا نياتهم لله تعالى أسبغ الله تعالى عليهم ثوب العافية، وقواهم وسلمهم من الآفات، ومن ذلك النوم، فإن من طلب شيئاً لله ساعده الله تعالى في طلبه هذا، وبارك له في أوقاته كلها؛ ومنها أوقات نومه، حتى صار يكتفي بساعات قلائل،

فلا يلحقه تعب ولا يدركه إرهاق، وهذا أمر مشاهد معلوم عند بعض الناس اليوم، وهو مشاهد معلوم من حال سلفنا ﷺ، والأخبار في ذلك كثيرة متعددة، ستأتي قريباً إن شاء الله تعالى[(١)].

لكني أذكر في هذا المقام حديث فاطمة ﵂ لما تعبت من عمل البيت، وطلبت خادماً ليساعدها:

فعن علي ﵁ أن فاطمة ـ عليها السلام ـ شكت ما تلقى من أثر الرحا، فأُتي النبي ﷺ بسبي، فانطلقت فلم تجده، فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت لأقوم فقال: «**على مكانكما**»، فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري، وقال: «**ألا أعلمكما خيراً مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما تكبران أربعاً وثلاثين، وتسبحان ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين، فهن خير لكما من خادم**»[(٢)].

وقال ابن حجر[(٣)] ـ رحمه الله تعالى ـ معلقاً على ما في الحديث من فوائد:

---

(١) في فقرة قادمة بعنوان: أمثلة على سهر الصالحين ومغالبتهم النوم.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن ﵁.

(٣) أحمد بن علي بن محمد، الأستاذ، إمام الأئمة، أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري، ثم القاهري الشافعي، ويعرف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه، ولد سنة ٧٧٣هـ بمصر العتيقة، حفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجدَّ في الفنون حتى بلغ الغاية، وأقبل على الحديث بكليته، وارتحل في طلبه، وولي عدة وظائف في الحسبة والإمامة والقضاء، وله المصنفات النافعة المشهورة، ، توفي في القاهرة سنة ٨٥٢هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الضوء اللامع»: ٢/ ٣٦.

«وفيه ـ أي من الفوائد ـ أن من واظب على هذا الذكر عند النوم لم يصبه إعياء؛ لأن فاطمة شكت التعب من العمل فأحالها ﷺ على ذلك، كذا أفاده ابن تيمية[١]، وفيه نظر، ولا يتعين رفع التعب، بل يحتمل أن يكون من واظب عليه لا يتضرر بكثرة العمل، ولا يشق عليه، ولو حصل له التعب، والله أعلم»[٢].

ولا أرى وجهاً لاعتراض ابن حجر على كلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى؛ إذ حاصل كلامهما واحد، وهو عدم حصول الضرر والمشقة؛ أي: عدم الشعور بالتعب، وقد أخبرني بعض إخواني أنه عندما يأوي إلى فراشه وهو متعب ويذكر هذا الذكر، فإنه ينام ساعات قليلة، ويقوم نشيطاً قوياً، والله أعلم.

٣ ـ عدم مغالبة النعاس الخفيف إن وجد والاستجابة لدواعيه:

بعض الناس إذا أدركه النعاس أو غشيته رغبة في النوم سارع لتحقيقها، لكنه لو صمد قليلاً إزاءها لانقشعت عنه وفارقته، ولا ينبغي للمرء أن يقاوم النعاس الغالب، لكن النعاس الخفيف ينبغي أن يغالب شيئاً ما حتى لا يضيع على المرء وقته، خاصة أن الجالب لهذا النوع من النعاس ـ غالباً ـ هو ما أحاط به المرء نفسه من وسائل الترفيه، نحو الازدياد من الطعام والشراب، أو التمدد على الوثير من الفراش في غير وقت النوم، أو تكييف الهواء تكييفاً مبالغاً فيه، فكل هذا وأمثاله جالب لأنواع من النعاس، يسهل طردها بتغيير أو تقليل هذه الجوالب.

---

(١) سبقت ترجمته ص: ٥٥.

(٢) «فتح الباري»: ١٤٧/٢٣.

٤ ـ الإكثار من جوالب النعاس:

وذلك نحو الطعام الكثير المرفه، أو التمدد الطويل في غير وقت النوم، أو غير ذلك، وقد كان سلفنا ـ رضي الله تعالى عنهم ـ يتقللون جداً من هذه الأمور؛ حتى لا يضيعوا حياتهم بكثرة النوم، فهذا الإمام النووي(١) ـ رحمه الله تعالى ـ يقدم له أحد أصحابه خيارة مقشرة فيردها قائلاً: أخاف أن ترطب جسمي فأنام.

هذا؛ وسيرته في طرد النوم وإطالة السهر عجيبة، ستأتي قريباً إن شاء الله تعالى.

والأمثلة على الترف وأثره في قضية النوم اليوم، وتوسع عدد من الصالحين والدعاة في الأخذ به، كثيرة متعددة، فمن ذلك:

١ ـ التأخر عن المواعيد بسبب النوم:

وهذا كثير مشاهد، ولو كان نوماً غالباً لعُذِر مثل هذا، لكنه ـ على الأغلب ـ نوم ناشئ عن ترف وتوسع، وكان يمكن له مغالبته شيئاً ما، أو الاكتفاء بالقليل منه حتى يدرك موعده.

٢ ـ عدم قبول المواعيد المبكرة من أجل النوم:

وهذا الصنيع يَحْرمه من قول النبي ﷺ: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**»، وكان إذا بعث سرية أو جيشاً بعثهم من أول النهار، وكان

---

(١) يحيى بن شرف بن مُرِّي، مفتي الأمة، شيخ الإسلام، محيي الدين، أبو زكريا النووي، الحافظ الفقيه الشافعي، الزاهد، أحد الأعلام، ولد بـ «نوى» سنة ٦٣١هـ؛ وهي من قرى حوران شمال الشام، ألّف مصنفات نفع الله بها المسلمين إلى الغاية، توفي بـ «نوى» سنة ٦٧٦هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «فوات الوفيات»: ٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٨.

صخر بن وداعة الغامدي[(١)] ـ راوي الحديث رضي الله عنه ـ تاجراً، وكان يبعث تجارته أول النهار فأثرى وكثر ماله[(٢)]، وهذا ابن القاسم[(٣)] ـ رحمه الله تعالى ـ يقول:

«كنت آتي مالكاً غلساً فأسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدر، فكنت آتي كل سحر»[(٤)]، والغلس: آخر الليل.

وما أحسن المواعيد التي هي عقب صلاة الفجر فهي مباركة، جليلة الأثر، لكن ما الحيلة وقد غلب على الناس النوم بعد الفجر، فلا سبيل لذلك اليوم إلا قليلاً أو نادراً.

أمثلة على سهر الصالحين ومغالبتهم النوم:

لقد ضرب سلفنا الصالح رضي الله عنهم أروع الأمثلة في هذه القضية، فكانوا لا ينامون إلا قليلاً، ويغالبون النوم مغالبة عجيبة.

فهذا الفضيل بن غزوان[(٥)] ـ رحمه الله تعالى ـ يقول:

---

(١) **صخر بن وداعة الغامدي**: صحابي مُقل، حجازي، سكن الطائف رضي الله عنه. انظر «التقريب»: ٢٧٥.

(٢) انظر: سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الإبكار في السفر؛ وسنن الترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في التبكير بالتجارة.

(٣) **ابن القاسم**: عبد الرحمن بن القاسم بن خالد العُتَقي، أبو عبد الله المصري، الفقيه، صاحب الإمام مالك، ثقة، مات سنة ١٩١هـ، رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٣٤٨.

(٤) «صلاح الأمة»: ١/ ١٩٨، نقلاً عن «ترتيب المدارك»: ٣/ ١١٠.

(٥) **الفضيل بن غزوان** بن جرير، الضبي بالولاء، أبو الفضل الكوفي، ثقة، مات بعد سنة ١٤٠هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ٤٤٨.

«كنا نجلس أنا ومغيرة[١] ـ وعدَّد ناساً ـ نتذاكر الفقه، فربما لم نقم حتى نسمع النداء بصلاة الفجر»[٢].

وهذا الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ يصلي الفجر بوضوء العشاء نصف قرن (خمسين سنة)، وهو أمر عجيب غريب، لا يقدر عليه إلا آحاد من الناس على مر القرون[٣].

وهذا الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد الشافعي الحافظ[٤]، ظل أربعين سنة لم ينم الليل، ويصلي صلاة الفجر بوضوء العشاء! رحمه الله تعالى[٥].

وهذا الإمام محمد بن الحسن الشيباني[٦] فقيه الأحناف المشهور، كان قد جزَّأ الليل ثلاثة أجزاء: جزء للنوم، وجزء للصلاة، وجزء للدرس.

وكان كثير السهر، فقيل له: لِمَ لا تنام؟ قال: كيف أنام وقد نامت عيون المسلمين تعويلاً علينا! وهم يقولون: إذا وقع لنا أمر رفعناه إليه

---

(١) **مغيرة**: يعني مغيرة بن مِقْسَم الضَّبي، أبو هشام الكوفي الأعمى، ثقة، متقن، مات سنة ١٣٦هـ، رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٥٤٣.

(٢) «صلاح الأمة»: ١/ ١٨٢.

(٣) انظر القصة في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض: ٣/ ٢٥٠.

(٤) **أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد الشافعي الحافظ**: الإمام الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، النيسابوري، صاحب التصانيف، توفي سنة ٣٢٤هـ عن بضع وثمانين سنة، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٦٦، ٦٥.

(٥) «صلاح الأمة»: ١/ ٣٤٥، نقلاً عن «تاريخ بغداد»: ١/ ١٢٢.

(٦) **محمد بن الحسن الشيباني**: محمد بن الحسن بن فرقد، أبو عبد الله الشيباني الكوفي، صاحب أبي حنيفة، وفقيه العراق، توفي بالري سنة ١٨٩هـ ـ رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٩/ ١٣٤ ـ ١٣٦.

فيكشفه لنا، فإذا نمنا ففيه تضييع للدين!![١].

الله أكبر! إنه يطيل السهر لعلمه أن مسؤولية المسلمين وتعليمهم معلقة في رقبته ورقاب مثله من العلماء والدعاة والصالحين، هذا استشعار للمسؤولية عظيم، رحمه الله تعالى.

وكان بعضهم إذا نام استيقظ عدة مرات في الليلة الواحدة؛ لأن قلبه مشغول بمصالح المسلمين وطلب العلم:

فهذا الإمام البخاري[٢] ـ رحمه الله تعالى ـ يستيقظ في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، وفي كل مرة يقوم إلى السراج فيضيئه، ثم يقعد على حديثه يصلحه، وقد تكرر منه هذا ـ رحمه الله تعالى ـ ورآه أصحابه[٣].

وهذا الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ كان مضرب الأمثال في البعد عن الإطالة في النوم والتمادي فيه، ويقول عنه الإمام الذهبي[٤] ـ رحمه الله تعالى ـ:

---

(١) «صلاح الأمة»: ١/ ٢١٨.

(٢) **الإمام البخاري**: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجُعْفي، أبو عبد الله البخاري، جبل الحفظ، وإمام الدنيا في فقه الحديث، مات سنة ٢٥٦هـ وله ٦٢ سنة، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ٤٦٨.

(٣) «صلاح الأمة»: ١/ ٢٦٨.

(٤) **الإمام الذهبي**: الإمام الحافظ الكبير شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، محدث عصره، إمام الوجود حفظاً، وذهب العصر معنى ولفظاً، وشيخ الجرح والتعديل، ولد سنة ٦٣٧هـ، وطلب الحديث وارتحل وأخذ عن شيوخ كثيرين، وسمع منه الجم الغفير، وألف المصنفات الكثيرة النافعة، وتوفي سنة ٧٤٨هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «طبقات الشافعية الكبرى»: ٩/ ١٠٠ ـ ١٢٣.

«وضرب به المثل في إكبابه على طلب العلم ليلاً ونهاراً، وهجره النوم إلا عن غلبة، وضبط أوقاته بلزوم الدرس أو الكتابة أو المطالعة أو التردد على الشيوخ»[١].

وسأله أحد المشايخ عن نومه، فقال: «إذا غلبني النوم استندت إلى الكتب لحظة ثم أنتبه»[٢].

وقال عن نفسه محدثاً تلميذه:

«لما كان عمري تسع عشرة سنة قدم بي والدي إلى دمشق في سنة تسع وأربعين[٣]، فسكنت المدرسة الرواحية، وبقيت نحو سنتين لم أضع جنبي إلى الأرض!!»[٤].

الله أكبر! ما أعظم همته؟!

ثالثاً ــ حب التكثر من المال:

وذلك لغرض التكثُّر والازدياد، لكن من نوى الاستكثار من المال خدمة لدين الله وذوداً عن حياضه، فليس لي معه حديث، وأسأل الله تعالى أن يوفقه لما ارتضاه وانتواه[٥]، ولكن التعلق بمباهج الحياة لا بد له من مال وفير، وهذا هو المحذور بأن يطلب المال ليتعلق بالمباهج والمفاتن، ويجلب منها أكبر قدر ممكن.

---

(١) «صلاح الأمة»: ١/ ٤٨٦.

(٢) «المصدر السابق»: ١/ ٤٨٧.

(٣) أي: وستمئة.

(٤) المصدر السابق: ١/ ٤٨٦.

(٥) انظر: «رسالة التوازن عند التنازع»، لواضع هذه الرسالة، ففيها مبحث مهم عن المال وطلبه، والمحاذير في ذلك.

والله تعالى ذكر المال في كتابه؛ فبين أنه ساحب لصاحبه إلى ما لا يحمد عقباه إلا أن يعصمه الله، فقال جل من قائل: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٤ ـ ١٥].

وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١ ـ ٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ١ ـ ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر: ١٢ ـ ١٣].

وقال جل من قائل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ - ٧].

أي: رأى نفسه قد استغنى، أي: صار ذا مال وثروة، وقيل: استغنى بالعشيرة والأنصار والأعوان[١].

فعلى من ابتلي بالمال الوافر أن يحذر من أن يجره إلى الترف والتوسع في الطيبات، فإن ذلك مقعد له عن الدرجات العاليات، سالك له في سلك أهل الترف والبطالات.

هذا؛ وقد قال النبي ﷺ:

«**قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه**»[٢].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي؛ «الجامع لأحكام القرآن»: ٢٠/ ١٢٣.

(٢) صحيح الإمام مسلم: كتاب الزكاة: باب فضل التعفف والصبر والقناعة، و**الكفاف**: الكفاية بلا زيادة ولا نقص.

(٣) المصدر السابق.

وقال الحبيب الأعظم ﷺ: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً**»(١).

وقال ﷺ:

«**من أصبح منكم آمناً في سِرْبه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيرها**»(٢).

وقال ﷺ:

«**ما طلعت شمسٌ قَطُّ إلا بُعث بجنبتيها ملكان يناديان، يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، فإنه ما قل وكفى خيرٌ مما كثر وألهى، ولا غابت شمس قط إلا بُعث بجنبتيها ملكان يناديان، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً**»(٣).

وقال عمر رضي الله عنه في دعائه:

«اللهم لا تكثر لي من الدنيا فأطغى، ولا تُقِلَّ لي منها فأنسى، فإنه ما قل وكفى خير مما كثر وألهى»(٤).

وقال أحد السلف:

«شكوت إلى جارة لي ضيق المكسب علي وأنا شاب، فقالت لي: يا بني: استغن بغنى القناعة عن ذل المطالب، فكثيراً والله رأيت الكثير

---

(١) **سِرْبه**: نفسه، وقيل: أهله وعياله، و**حِيزت**: جُمعت، و**حذافيرها**: جوانبها. انظر: «تحفة الأحوذي»: ٧/ ١١، والحديث حسن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، وقال الهيثمي ـ رحمه الله تعالى ـ: رجاله رجال الصحيح. انظر: «مجمع الزوائد»: ٣/ ١٢٥.

(٣) «قمع الحرص بالزهد والقناعة»: ١٣٦.

(٤) المصدر السابق.

عاد وخيماً، ووالله رأيت القليل عاد سليماً»[١].

والقاعدة المبعدة عن حب التكثر من المال والحماية من الترف بسببه؛ ما قاله النبي ﷺ:

«**إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيراً فَنَفَحَ فيه بيمينه وشماله، وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيراً**»[٢].

فالمال خير إن أُنفِقَ في خير مهما كثر، والمال شر إن طلبه المرء للتكثر، وساقه إلى الترف والعياذ بالله.

وهناك أمر خطير في قضية حب المال هذه؛ وهو أنه يجعل للمال عند صاحبه الأهمية المطلقة، ويختلط هذا عادة بإيثار السلامة والدعة، والبعد عن المشكلات، وكراهة التجديد، فصاحب المال المستكثِر منه يرفض الجديد من الأعمال والأقوال والأفكار؛ لأنه أَلِف الواقع القائم، وتكيف معه، ولا يشعر بخطر منه، بينما الجديد يحمل المخاطر والمجهول والمغامرة، وهذا عينه هو الذي ساق الكافرين المترفين إلى الكفر بالدعوة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣ ـ ٢٤][٣].

رابعاً: التوسع في المركوب:

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الزكاة: باب الترغيب في الصدقة.

(٢) انظر في هذه القضية الأخيرة: مجلة «المنطلق»، العدد ٣٦ـ ص: ٥٣.

(٣) هذه مقدمة صالحة لهذه الفقرة ولفقرتي (هـ، و) بعدها.

الله ـ تبارك وتعالى ـ قد أنعم علينا بنعم جليلة[١]، وهو جلَّ جلاله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وقد قال رسول الله الأعظم ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**».

لكن تلك الآية الكريمة، وذاك الحديث الشريف، يجب أن يُفهما في حدود ما ورد في سيرة رسول الله ﷺ والسلف الكرام من الصحابة العظام ـ رضي الله تعالى عنهم ـ ومن جاء بعدهم؛ إذ هم الذين فهموا عن الله ورسوله ﷺ أكثر مما فهمنا، وعرفوا من مراد الشارع ما لم نعرفه، وفقهوا ما لم نفقهه، وليت شعري إن لم نَسِرْ على درب أولئك فعلى أي درب نسير؟! وإن لم نقتدِ بهم فبمن نقتدي؟!

وهناك بعض الدعاة ونفر من الصالحين قد توسعوا توسعاً عظيماً في الأخذ بهذه النعم، حتى أشبهوا أهل الترف والبطر والثراء العريض، ونسوا ما يترتب على ذلك من كسر نفوس سائر إخوانهم من الدعاة والصالحين وطلبة العلم، بَلْهَ كسرَ نفوس سائر الناس، ولقد كان النبي الأعظم ﷺ قادراً على ركوب الدواب الفارهة، ولبس الملابس الناعمة والغالية، وسكنى القصور، لكنه آثر ـ بأبي هو وأمي ﷺ ـ أن يكون زاهداً متخففاً، وكذلك آثر نفر من كبار السلف الصالحين من أمته من بعده هذا الصنيع.

ولعل قائلاً أن يقول: وهل هذا التوسع حرام؟ وأقول: معاذ الله، إنه ليس بحرام؛ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، لكن شأن القدوات التخفف، والتحقق بسيرة

سيد المرسلين عليه أفضل الصلوات والتسليم، وإيثار ما آثره؛ حتى يصلوا إلى شيء مما وصل إليه ﷺ، ولا يُمنعوا المراتب العالية بسبب إيثارهم شهواتهم وإِتْباع أنفسهم مراداتها، ألم يقل النبي ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»؟ وما للغريب وعابر السبيل والتعلق بشهوات الدنيا ولذائذها التعلق الزائد؟!

ولعل من مظاهر التوسع في الأخذ بزينة الحياة الدنيا المغالاة في أمور ثلاثة: المركوب، والمسكن، والملبس.

أما المسكن والملبس فسيأتي الحديث عنهما إن شاء الله تعالى، وأما المركوب فأقول والله الموفق:

إن العاقل من اتخذ لنفسه مركوباً صالحاً، يعينه على قضاء حوائجه، ويفي بحوائج أهل بيته، ولو اتخذ أكثر من مركوب فلا بأس بهذا، لكني وجدت نفراً من الصالحين والدعاة وطلبة العلم ـ بل العلماء ـ قد نافسوا الأثرياء والأمراء في التوسع في اقتناء أحدث الأنواع وأفرهها وأجملها، بل إن بعضهم يستدين ليشتري الأنواع التي يحبها، وبعض الناس يلزم نفسه بأقساط تمتد سنوات طويلات حتى يقتني السيارة التي يرغبها، وهذا منه عجيب؛ إذ إنه تطلع إلى ما لا يليق به، ولا يصلح له، بل قد لا يستطيع أن يفي بأجرة إصلاح سيارته إن عطلت.

وهؤلاء قد يحتجون لأنفسهم بحجج عجيبة إن حدثهم أحد في هذه القضية، فبعضهم يقول: هذا أمر مباح فلا تحجر علي، وآخر يقول: أنا أدخل على الأغنياء وعلية القوم، فينبغي أن أشابههم فيما يركبون ويلبسون، وثالث يقول: أنا آتي منهم بأموال للمسلمين تفوق أضعافاً

مضاعفة قيمة السيارة، وهذا كله مغالطة للنفس، وإيهام لها بصواب ذلك العمل، وأقول للأول: إن هذا مباح، لكن لم يكن من صنيع عظماء أسلافنا، واتباعهم أولى وإن لم تكن مخالفتهم حراماً، وأقول للثاني: مشابهة أولئك مدخل شيطاني كبير فاحذر منه، أما الثالث فأطرف الثلاثة، وأدقهم حجة، وألطفهم حيلة لما يصنع، مع وهن حجته لمن تأمل فيها؛ فالأغنياء وعلية القوم إنما يعطونه لما رأوا فيه من إخلاص وهمة ونشاط في العمل للإسلام، ولما لمسوا من صدقه، لكنهم لم يفعلوا ذلك لجمال سيارة الداعية، ولا لفراهتها، ولا لغلاء ثمنها قطعاً، فينبغي أن نقتدي بالصالحين، ونخلص إخلاصهم، فهذا والله هو الذي يعطف قلوب الناس إلينا، ويحببهم بنا لا غير.

ثم ماذا نقول لإخواننا ـ خاصة في المناطق المنكوبة ـ عندما يرون ما نركب وما نلبس؟! وكيف نعتذر إليهم وثمن سيارة بعضنا يعدل راتبه وراتب ثلاثة من أمثاله طيلة حياتهم، وقد لا تبلغ رواتبهم مجتمعين ثمنها؟! وماذا نقول لهم وثمن سيارة بعضنا يعدل ثمن سلاح قد يؤثر وينكي في العدو، أو يعدل ثمن غذاء يطعم قرى بأكملها؟!

وقد يقول هذا المتوسع في المركوب: إني أعطي من مالي لأولئك، وأنفق عليهم، وأقول: وماذا عن أقوام اشتروا سياراتهم بأثمان مقسطة، وظلوا يحتالون لأنفسهم سبع سنوات أو أكثر حتى يوفروا مبالغ التقسيط؛ فمن أين يدفع أولئك لإخوانهم أهل النكبات وهم قد أصبحوا بحاجة لمن يدفع إليهم وينقذهم من ورطتهم؟!

وهذا الذي قدمته كله ليس بشيء أمام آفة خطيرة تصيب بعض مقتني تلك المركوبات الفاخرة، ألا وهي ما يدخل في نفوسهم من

العظمة، والشعور بالعلو والرفعة التي قلَّ مَنْ يسلم من آثارها، فهذا عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ لما ذهب ليتسلم مفاتيح بيت المقدس من الروم، فاستقبله أبو عبيدة رضي الله عنه وأصحابه، وقربوا إليه بِرْذَوْناً[(١)]، فقالوا: «اركب هذا البرذون يا أمير المؤمنين، فإنه أجمل وأهون عليك في ركوبك... فنزل عمر عن جمله وركب البرذون.. فلما هَمْلَجَ[(٢)] به البرذون نزل عنه وقال: خذوا هذا عني، فإن في هذا شيطاناً، وأخاف أن يُغيِّر علي قلبي»[(٣)]، فانظروا ـ رحمكم الله تعالى ـ إلى قول عمر: «أخاف أن يغيِّر عليَّ قلبي»؛ فكيف لو رأى ما نركبه اليوم ونهملج به؟!

وهناك آفة أخرى؛ وهي أن هذا الذي اعتاد المركوب الفاخر يصعب عليه أن يفقده، أو أن يركب أقلَّ منه، وقد يضيع مواعيده بسبب عدم وجود مركوب يلائمه، وقد هاتفت مرة واحداً من هؤلاء عندما تأخر عن موعده، فقال: ليس عندي سيارة، فقلت له: استأجر سيارة وتعال، فاستثقل هذا استثقالاً ظهر من حديثه معي بعد ذلك، أإلى هذا الحد وصل الترف بالناس؟!

خامساً: التوسع في المسكن:

المسكن الحسن الواسع من جملة النعيم الذي أنعم الله تعالى به على عباده، وقد قال ﷺ:

«من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقوة ابن آدم ثلاثة، من سعادة ابن

---

(١) البَغْل.

(٢) تبختر.

(٣) «فضائل بيت المقدس»: ٢٢٢.

آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شقوة ابن آدم: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء»(١).

والعاقل ينبغي له أن يبني أو يستأجر لنفسه مسكناً متوسطاً، يحفظه ويحفظ أهله، ويقضي حاجاته من نوم وطعام واستقبال للضيف على وجه حسن... إلخ.

ونشاهد اليوم كثيراً من المسلمين ـ بل عدداً من الصالحين والدعاة ـ قد توسع في المسكن توسعاً أفضى به إلى أن يسرف إسرافاً مرذولاً، وترى أنك إذا دخلت مسكنه دخلت قصراً مشيداً، فالأثاث فاخر إلى درجة المبالغة، وهو ثمين للغاية، وزائد عن الحاجة، والمسكن قد جعلت فيه من أسباب الرفاهية الشيء الكثير، فمثل هذا المسكن يُخشى على صاحبه من الانزلاق إلى الترف بسببه.

نعم، إنه ليس من الحرام مثل هذا التوسع لمن بُسطت الدنيا عليه، لكن هل وصل حالنا إلى أن نأتي ما ليس بحرام ولو كان مكروهاً معيباً، بحجة أنه ليس بحرام؟ وهل نأتي كل ما ليس بحرام وإن عاد علينا بشيء كثير أو قليل من الترف الصادِّ عن المعاني العلية؟ وإن جاز هذا الصنيع لعامة الناس؛ فهل يصلح لصفوتهم من الدعاة والصالحين؟ فعلى المرء العاقل أن يتوسط ولا يجنح إلى الإفراط ولا إلى التقصير، والسعيد من يعرف ماذا يصلح له فيأتيه، موافقاً للحدود الشرعية، والأعراف الاجتماعية، والقواعد الدعوية المرعية.

---

(١) قال الهيثمي: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر: «مجمع الزوائد»: ٤/ ٢٧٥.

وإليكم صوراً من مساكن النبي ﷺ وأثاثه؛ حتى تكون عوناً لكسر النفس وشهوتها في التوسع والإفراط، فقد «كان ضجاع رسول الله ﷺ الذي ينام عليه بالليل من أَدَمٍ محشواً ليفاً»(١).

وهذا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على سرير مُرَمَّل بشريط(٢)، وتحت رأسه وسادة من أَدَمٍ، حشوها ليف، فدخل عليه نفر من أصحابه ودخل عمر، فانحرف رسول الله ﷺ انحرافة، فلم ير عمر بين جنبه وبين الشريط ثوباً، وقد أثر الشريط بجنب رسول الله ﷺ!! فبكى عمر، فقال له النبي ﷺ: «**ما يبكيك يا عمر؟**»، قال: والله إلا أن أكون أعلم أنك أكرم على الله عز وجل من كسرى وقيصر، وهما يعبثان في الدنيا فيما يعبثان فيه، وأنت يا رسول الله بالمكان الذي أرى، فقال النبي ﷺ: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**»، قال: بلى، قال: «**فإنه كذلك**»(٣).

وهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثَّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وِطاءً، فقال: «**مالي وللدنيا؟! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها**»(٤).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ورجال أحمد رجال الصحيح غير هلال بن حباب، وهو ثقة. انظر: «الفتح الرباني»: ٢٢/ ٨٣. ومعنى أَدَم؛ أي: جلد مدبوغ.

(٢) أي: نُسج بحصير من سعف النخل، ولم يكن على السرير وطاء. انظر: «الفتح الرباني»: ٢٢/ ٨٣.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وسند الحديث صحيح. انظر: «الفتح الرباني»: ٢٢/ ٨٣.

(٤) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، كتاب الزهد، وقال: حديث صحيح.

وكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو على الكوفة أميراً يستأذنه في بناء بيت يسكنه، فوقَّع في كتابه: «ابن ما يسترك من الشمس، ويُكِنُّكَ من الغيث[١]؛ فإن الدنيا دار بُلْغَة[٢]»[٣].

وقال ﷺ:

«فراشٌ للرجل، وفراشٌ لأهله، وفراشٌ للضيف، ورابع للشيطان»[٤].

وهذا عمر رضي الله عنه لما ذهب إلى فلسطين ليتسلم مفاتيح بيت المقدس أقام أياماً، ثم قال لأبي عبيدة رضي الله عنه: «لم يبق أمير من أمراء الأجناد إلا استزارني[٥] غيرك، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، إني أخاف أن أستزيرك فتعصر عينك[٦] في بيتي، قال: فاستزرني، قال: فزرني، فأتاه عمر في بيته فإذا ليس في بيته شيء إلا لِبَد فرش، وإذا هو فراشه وسَرْجه، وإذا هو وساده، وإذا كِسَر يابسة في كوة بيته، فوضعها على الأرض بين يديه، وأتاه بملح جريش، وكوز خزف فيه ماء، فلما نظر

---

(١) يحميك من المطر.

(٢) بلاغ إلى الدار الآخرة.

(٣) «آفات على الطريق»: ١/ ٥٢، نقلاً عن «حياة الصحابة» للكاندهلوي: ٢/ ٢٨٦.

(٤) صحيح الإمام مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب كراهة ما زاد على الحاجة من الفراش واللباس، وقال الإمام النووي: «قال العلماء: معناه أن ما زاد على الحاجة فاتخاذه إنما هو للمباهاة والاختيال والالتهاء بزينة الدنيا، وما كان بهذه الصفة فهو مذموم، وكل مذموم يضاف إلى الشيطان؛ لأنه يرتضيه ويوسوس به، ويحسنه ويساعد عليه، وقيل: إنه على ظاهره، وإنه إذا كان لغير حاجة كان للشيطان مبيت عليه ومقيل». انظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ١٤/ ٣٠٤.

(٥) طلب منه أن يزوره في بيته.

(٦) تبكي.

عمر إلى ذلك بكى، ثم التزمه وقال: أنت أخي، وما من أحد من أصحابي إلا وقد نال من الدنيا ونالت منه غيرك، فقال له أبو عبيدة: ألم أخبرك أنك ستعصر عينيك؟!»[١].

هذا، وأبو عبيدة رضي الله عنه هو الأمير العام على جيوش الشام، وإنما ذكرت حاله في بيته لتنكسر نفوسنا قليلاً وتخشع، ولتمتنع عن التوسع والترف في المسكن والملبس والمطعم.

سادساً: التوسع في الملبس:

وهذا والله مما لم أكن أحب الخوض فيه؛ وذلك لأن الأمر أوضح من أن يُبيَّن، لكن ما الحيلة وقد رأيت عدداً من الصالحين يحذو حذو غيره من العامة في التوسع في ملبسه توسعاً أفضى به إلى أن يصير كالعروس؟!

نعم، إن النبي ﷺ كان يلبس الحلل النظيفة الجميلة، فقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان أحب الثياب إلى النبي ﷺ أن يلبسها الحِبَرة»[٢]. والحِبَرَة: بُرْدٌ يمانيٌّ من قطن مُحَبَّر؛ أي: مزين محسن.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم...»[٣].

لكنه - بأبي هو وأمي ﷺ - كان يلبس أيضاً الخشن من الثياب، بل كان أكثر لباسه ﷺ كما دلت على ذلك الأحاديث الشريفة والسيرة المطهرة، وهذا لا يخفى على قارئ أو مطلع، واتبعه على هذا جماعات

(١) «فضائل بيت المقدس»: ٢٢٣.
(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب اللباس: باب البرود والحِبَر والشملة.
(٣) المصدر السابق: باب الثياب البيض.

كثيرة من الصحابة والسلف رضي الله تعالى عنهم أجمعين؛ فقد كانوا يلبسون ما اتفق لهم لبسه، ولا يغالون في ثمن الثياب، ولا يتطلبون الفاخر منها، ولا يحرصون على كل ذلك، بل كل من عرف حياة السلف وقرأ سيرتهم يعلم زهدهم في رفيع الثياب.

لكن تعالوا فانظروا كيف توسع بعض الخواص اليوم، وأصبحوا يحرصون على هندامهم حرصاً عجيباً، فثمن القماش مرتفع، والتفصيل مغالى فيه، وبعضهم صار يطبع على ثوبه الحروف الأولى من اسمه، وقد نقشت بالإنجليزية؛ فما هذا؟! وهل هذا يليق بالدعاة والصالحين وخواص الناس الذين يفترض فيهم الحرص على العربية وعدم تقليد غيرهم؟ وهل مثل هذا إلا ترف محض، لا فائدة منه على الإطلاق، ومظهر لا يليق بالدعاة والصالحين؟ وقل لي بربك: هل رأيت رجلاً من رجال الغرب قد نقش على ثيابه أحرفاً عربية؟ ولو كان في هذا أدنى فائدة لامتنعت من الحديث عنه ولكن لا فائدة فيه أبداً، وهل يستطيع مثل هذا اللابس لهذه الملابس أن يسعى في أمر ما أو يهرع إلى شيء ما؟ أم أنه سيخاف على ملابسه أن يجرحها النسيم المار، أو يؤثر فيها ذرات الغبار المتطايرة؟!

وأين ملابس اليوم من ملابس النبي ﷺ وأصحابه ﵃، فقد كان ﷺ يلبس ما تيسر، وكان الصحابة ﵃ يلبسون ما تيسر لهم من اللباس دون المغالاة كما نصنع اليوم، ولقد خاف عمر ﵁ على من كان يقيم بالشام أن يتسرب إليهم الترف، فكتب إلى عامله بالشام: «انظر مَن قِبَلك فمرهم فلينتعلوا وليحتفوا»؛ أي: ليمشوا أحياناً بالنعال، وأحياناً

---

(١) مجلة الأزهر: الجزء ٨، العدد ٦١، ١٤٠٩هـ.

حفاةً؛ تدريباً لهم على الخشونة والتقشف[(١)].

وأنا لا أقول بأن نمشي حفاةً اليوم، لكن أريد من سَوْقي هذا الأثر المعنى دون حرفية النص، وأن نتقي الله فيما نلبس من ملابس وننتعل من نعال، فإن إخواننا الفقراء في أرجاء المعمورة أحوج إلى كسرة خبز وشربة ماء منا إلى غالي الثياب وفاره النعال، والله أخشى أن يحاسبنا الله تعالى على ولوغنا في هذا الترف العجيب وولوعنا به.

هذا وقد قال ﷺ هادياً للتوسط في الملابس: «**من ترك اللباس ـ أي: الفاخر منه ـ تواضعاً لله وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها**»[(٢)].

ويكفي تخويفاً من حب التوسع في الملبس والترف في تعاطيه ما قاله النبي ﷺ داعياً على فاعله:

«**تعس عبد الدنيا، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعْط سَخِط، تعس وانتكس، وإذا شِيك فلا انتقش**»[(٣)].

ولعل المرأة في هذا الأمر أن تكون أكثر وقوعاً فيه من الرجال، وأشد أخذاً بأسباب التأنق وكمال الزينة، لكن عليها أن تحذر كل الحذر، فليس معنى أنها من أهل الزينة والتجمل أن ترتع في ذلك، وأن تجاوز الحدود لتحضر كل مناسبة بحلة جديدة وزينة جديدة، وتغالي في كل ذلك بما لا يحسن ولا يستساغ، وهذا المرض امتد إلى

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: أبواب صفة القيامة، وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو وفي سبيل الله. ومعنى الخميصة: الثياب الملونة أو المخططة، ومعنى «**إذا شيك فلا انتقش**»؛ أي: دعاء عليه إذا أصابته شوكة لا يجد من يخرجها له بالمنقاش.

نساء يفترض أن يكن داعيات صالحات قدوات لغيرهن:

«أنا لا أفهم ولا غيري من العقلاء يفهم أن مِشْبَك الملابس يُشترى بآلاف من الجنيهات، وأن جوارب الحرير يساوي ثمن ملابس بأكملها... كما لا أفهم أن يكون طالب العلم مشغولاً بنفسه، ومشغولاً بأناقته إلى الحد الذي يخرج به عن كونه طالباً، وعن حقيقته طالباً، وأن يكون مثلاً سيئاً للفقراء ومتوسطي الحال من إخوانه الطلبة، يفسد عليهم أمورهم، وينغص عليهم عيشهم، ويجعلهم يتطلعون إليه تطلع حقد وحسد وكراهية، وخاصة إذا لم يكن عند هؤلاء الطلبة المترفين من المزايا النفسية والخلقية والعقلية ما يجعلهم يستأهلون هذه النعمة، ويجعلهم يتفاخرون ويتكاثرون بهذه الأعراض الزائلة الحائلة... لا يسوء الفقير أن يرى الغني أمامه أنيقاً رشيقاً، إنما يسوؤه أن يراه عارياً من المزايا، أنانياً، ينفق على شهواته ونزواته ومظاهره الكاذبة ما لو أُنفق في الصحيح من الأغراض لكسب حمد الناس، وجزاء الخير والعمل الصالح؛ الذي ينتفع به كثير من الناس»[١].

وهذا الذي ساقه الكاتب مثال لأصناف من الناس فضلت أن تتوسع في الملبس توسعاً مذموماً ساقها إلى الترف والدعة.

ومما يجمع أنواعاً من الترف المذكور آنفاً؛ وهو مدعاة إلى التوسع في كل ذلك المذكور توسعاً معيباً مترفاً:

الترف حال السفر إلى الخارج:

(١) «خلق ودين»: ١٥٣.

وهذا مشاهد معلوم، يشاهده المتابع لحال كثير من الأسر التي تسافر إلى الخارج لقضاء أوقات الإجازة الصيفية، خاصة أغنياء الأسر، فحدِّث ولا حرج عن المليارات من الريالات التي تُنفق في الخارج، على أمور أكثرها ترفٌ محض وتعلق زائد بالشهوات، ولو أُنفقت هذه الأموال في البلاد الإسلامية لهان الخطب قليلاً، لكن المصيبة أنها أُنفقت ـ في معظمها ـ في الدول غير الإسلامية، فازداد الطين بِلَّةً.

ومظاهر الترف حال السفر متعددة في المسكن والمطعم والملبس والمركوب، وغير ذلك كثير.

نعم، إن السفر إلى الخارج هو مظنة الوقوع في الترف؛ لذلك ينبغي الاقتصار إلى السفر للداخل، وإن كان ولا بد من السفر للخارج فليقتصر على السفر إلى البلاد الإسلامية؛ التي قد لا يضطر المسافر إليها للبذخ والإنفاق العريض، وتضييع المال في أمور أقل ما يقال فيها: إنها داخلة في باب الترف دخولاً أولياً، ولعمر الحق ينبغي أن يترفع الدعاة عن مثل هذا السفر، وينأون بأنفسهم عنه.

ولله دَرُّ الحافظ السِّلفي[١] الذي سكن الإسكندرية مدة طويلة جداً، فلم يترك داره لينظر في أرجائها ويجول فيها بقصد الفرجة، وهي

(١) **الحافظ السلفي**: أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الأصبهاني، الإمام العلامة المحدث، الحافظ، المفتي. ولد سنة ٤٧٥هـ، ولقبه السِّلفي ـ بكسر السين ـ بسبب غلظ شفته، وارتحل كثيراً، ثم استقر بالإسكندرية، وتوفي بها سنة ٥٧٦هـ وقد جاوز المئة، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٥ ـ ٣٩.

(٢) المصدر السابق.

بقربه، لا يحتاج إلى سفر لذلك، وقد قال عن نفسه: «لي ستون سنة ما رأيت منارة الإسكندرية إلا من هذه الطاقة!!»[١] يريد نافذة غرفته.

فينبغي على عقلاء الدعاة وطلبة العلم والصالحين ألا يسافروا إلا لغرض مشروع وإن حصل لهم شيء من الفرجة والترويح أثناء سفرهم فلا بأس، لكن أن يسافروا ويضيعوا المال والزمان من أجل الاسترواح فقط فهذا تضييع وبعد عن المعالي.

سابعاً: التوسع في النكاح:

النكاح من سنن سيد المرسلين عليه أفضل الصلوات والتسليم، لا جدال في هذا ولا مماراة، ومن رغب عن سنة النبي ﷺ فقد باء بالخسران والخيبة، ولكنْ هناك صورٌ من الترف في النكاح لا بد من توضيحها في ضوء الأمور الآتية:

١ ـ مؤونة النكاح:

ينبغي على الرجل ألا يسرف في مؤونة النكاح إن تعلقت نفسه به، فعليه أن يلتمس بركته بابتغاء اليسر فيه، وعدم المغالاة في المهر وتكاليف النكاح المتعددة، وليعلم الأخ الداعية أنه مقتدىً به ومنظور إليه في هذا الشأن، وهناك عدد من أغنياء الدعاة والداعيات إن أرادوا النكاح أسرفوا في مؤونته إسرافاً عظيماً، حتى تخالهم من أبناء كسرى وقيصر، لا من أبناء الدعوة الإسلامية!! فأين الحذر من كسر قلوب فقراء الناس ومتوسطيهم؟! وأين مراعاة أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ باجتناب الإسراف؟! بل أين المبادئ التي تربى عليها الدعاة في شأن مقاسمة الأمة سراءها وضراءها؟! والأمة اليوم لا تكاد تخرج من ضراء حتى تقع في أخرى، فالله الله معشر الدعاة، أفيقوا من هذه

الغفلة، وعليكم بالقصد في شؤونكم كلها حتى يبارك الله تعالى لكم في دعوتكم، وتتطابق أقوالكم مع أعمالكم، وعليكم بالنظر في سنة النبي ﷺ وهديه وهدي أصحابه؛ لتعلموا كيف كان نكاحهم سهلاً ميسوراً، لا شطط فيه ولا إسراف، ولا تَصنُّع ولا مغالاة ولا مباهاة.

٢ ـ طاعة الزوج في مطالبها الدنيوية والتوسع في ذلك:

لا شك أن للزوج على زوجها حقوقاً في النفقة والسكنى واللباس، لكنَّ عدداً من الدعاة توسعوا في هذا الشأن بدعوى الإنفاق على الزوج وإرضائها؛ حتى ساقهم ذلك إلى التبذير المنهي عنه، بل قد ساق عدداً منهم إلى ارتكاب الأمور المشتبهات، التي من ارتكبها توسعاً وتأنقاً، يوشك أن يرتع في الحرام الصريح، والعياذ بالله.

والمجتمع قد فرض على كثير من أفراده صوراً معينة من العيش، أكثرها قد لابسها من الترف ما الله به عليم، فهذه امرأة تريد أن تحضر كل مناسبة بملابس جديدة، وتلك أخرى تريد أن تغير أثاث منزلها كل سنة أو سنتين بلا حاجة إلَّا محض الترف والتوسع والتأنق، وهذه ثالثة ترغب في السفر للخارج كل سنة بدعوى قضاء إجازة الصيف، بقطع النظر عن المصاريف الباهظة التي سيتكلفها الزوج، وربما دعاه ذلك إلى الاستدانة، وهذه رابعة تريد الخروج إلى الأسواق بلا حاجة حقيقية إلا التوسع المحض والترف المهلك، وخامسة وسادسة وسابعة، والزوج يطيع في ذلك كله، ولا يملك الاعتراض!! وقد تجد الزوجين أو أحدهما من الدعاة ثم يقعان فيما ذكرته آنفاً بتحرج أو بدون تحرج، مع أنه يفترض أن يكون الزوجان الصالحان اللذان قد يُعَدَّان في جملة الدعاة الصالحين ـ يفترض أن يكونا قدوة لسائر الناس، وأن يُنشئا بيوتاً

تصلح أن تعد نموذجاً حسناً يقتدي به الآخرون ويسيرون عليه، لا أن يقلدا المترفين والمترفات في طرائق عيشهم فيزلوا ويضلوا.

٣ ـ التعدد بلا حاجة:

الداعية مطالب بإعادة المجد لهذا الدين، وعمل كل ما يستطيعه لإرجاع الناس لدينهم، وهذا يستغرق منه جل أوقاته، هذا إن كان صاحبَ همة يريد أن يحقق أثراً في دنيا الناس، والتعدد لا أناقشه أبداً من الناحية الشرعية، فهو جائز، بل قد يكون مستحباً في أحوال؛ لكني أتحدث عما رأيته وسمعته في شأن التعدد في حياة الدعاة خاصة، فأقول:

الداعية واحد من الناس باعتبار، ومتميز عنهم باعتبار آخر، فهو واحد من الناس في أحاسيسه ومشاعره الشخصية، وميوله ورغباته، وحاجاته... إلخ، لكنه متميز عن الناس في ارتفاعه بتلك المشاعر والأحاسيس والحاجات إلى ما يخدم دعوته ولا يضرها، ولا ينافي أعماله الدعوية اليومية المطلوبة أو المتوقعة منه، ولقد رأيت عدداً من الدعاة لا يكاد يفقه من شأن التعدد إلا أنه سنة، أما عدا ذلك من الاعتبارات فهو غافل عنها، والاعتبارات التي أعنيها هي:

أ ـ مراعاة الحاجة الفطرية للتعدد:

إذ إن بعض الدعاة قد يُعدد لأن صاحبه قد تزوج بأخرى، فأصابته الغَيرة، وآخر يعدد لأن صاحبه قد ألح عليه في شأن التعدد، وأخبره أنه هو الأصل، وأفهمه بصورة أو بأخرى أنه إن لم يعدد فهو قد قصر في الأخذ بسنة من السنن، أو أهمل أمراً مهماً من الدين، وثالث يعدد نكاية في زوجه، إثر خصام بينهما، ورابع يعدد لمطلق المباهاة والافتخار برجولته في المجالس!! فهؤلاء المعددون لم يجدوا حاجة

في أنفسهم وميلاً إلى التعدد، لكنهم فعلوا ذلك لأسباب جانبية لا علاقة لها بأصل القضية.

نعم إن فعلهم مباح، لكن لم يدفعهم إليه حاجة فطرية مُلحة، والعاقل من أتى ما دفعته إليه حاجته، لا ما دفعه إلى فعله الآخرون.

ومثل هذا غالباً ما يندم على صنيعه، وقد علمت أن بعض هؤلاء يسارع إلى طلاق الأخرى الجديدة لمجرد إشارة من القديمة الأولى أو الصلح معها؛ فهل هذا قد عدَّد لحاجة ماسة في نفسه يجدها؟ أشكُّ في هذا كثيراً.

أما الداعية الذي يعلم من نفسه حاجة للتعدد بحيث لا يقضيها الاقتصار على واحدة، فهذا إن أقدم على التعدد فلا يلومه أحد، وهو أَصْون لنفسه وأجمع لفكره؛ بحيث يتفرغ لدعوته بلا منغصات.

ب ـ القدرة على التعدد:

والقدرة التي أعنيها هي القدرة المالية، والجسدية، والنفسية، أما من يعدد وليس في مقدوره التكفل بالعيش الكريم لأسرتين أو أكثر، أو يعدد وهو ليس صاحبَ قدرة جسدية ولا نفسية لتقبل هذا الأمر، فصنيعه هذا ضرب من العبث يتنزه العاقل عنه، وكم رأينا من أشخاص عددوا فصاروا عالة على غيرهم، واعتادوا الاستدانة بعد أن كانوا في معزل عنها، ووقعوا في أمور كانوا منها في عافية وسلامة، لكن المرء إذا لم يحكم شأنه وقع فيما لا ينبغي لمثله الوقوع فيه.

جـ ـ ألا يشغله التعدد عن معالي الأمور:

وهذا ضابط للدعاة مهم؛ إذ أن مَن عدد فانشغل عن الدعوة، أو عن طلب المعالي في كل النواحي، فهذا قد حُرم خيراً كثيراً، وفاتته

المنازل العالية، وأما من جمع بين طلب المعالي والتعدد، فهذا موفق كامل، لكن قَلَّ والله مثاله.

وإليك أيها القارئ حكايةً نفيسةً عن الإمام أبي بكر الأنباري[١]؛ إذ مضى يوماً إلى النخَّاسين[٢]، ورأى جارية تُعرض حسنةَ الصورة، كاملة الوصف، قال: فوقعت في قلبي، ثم مضيت إلى دار أمير المؤمنين الراضي بالله[٣]، فقال لي: أين كنت إلى الساعة؟ فعرَّفتُه، فأمر بعض أسبابه[٤]، فمضى فاشتراها وحملها إلى منزلي، فجئت فوجدتها، فعلمت الأمر كيف جرى، فقلت لها: كوني فوق إلى أن أستبرئك[٥]، وكنت أطلب مسألة قد اختلَّت علي، فاشتغل قلبي عن علمي، فقلت للخادم: خذها وامض بها إلى النخاسين، فليس قدرها أن تشغل قلبي عن علمي! فأخذها الغلام، فقالت: دعني أكلمه بحرفين، فقالت: أنت رجل لك محل[٦] وعقل، فإذا أخرجتني ولم تبين ذنبي لم آمن أن يظن الناس بي ظناً قبيحاً، فعرِّفنيه قبل أن

(١) **أبو بكر الأنباري**: محمد بن القاسم بن محمد بشار الأنباري، المقرئ النحوي، الإمام الحافظ اللغوي ذو الفنون، ولد سنة ٢٧٢هـ، وكان صدوقاً ديِّناً من أهل السنة، توفي سنة ٣٢٨هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٢٧٤ ـ ٢٧٩.

(٢) الذين يبيعون العبيد.

(٣) **الراضي بالله**: الخليفة أبو إسحاق محمد بن المقتدر بالله الهاشمي العباسي، ولد سنة ٩٧هـ، وتوفي سنة ٣٢٩هـ، رحمه الله تعالى، وبويع بعده للمتقي بالله أخيه. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ١٠٣، ١٠٤.

(٤) من يقوم بأعماله وحاجاته.

(٥) أتبين براءة رحمك من الحمل.

(٦) مكانة.

تخرجني، فقلت لها: ما لك عندي عيب غير أنك شغلتيني عن علمي، فقالت: هذا أسهل عندي.

قال: فبلغ الراضي بالله أمره، فقال: «لا ينبغي أن يكون العلم في قلب أحد أحلى منه في صدر هذا الرجل»[١].

فهذا عالم لم يرضَ أن يستمتع بجارية حتى لا تشغله عن علمه، ولا تنأى به عن فضله ومكانته.

والزواج يشغل المرء عن المعالي، لكن لا بد له منه، لكن الشأن في التعدد بلا حاجة، وهذا الإمام أبو بكر النيسابوري الشافعي[٢] يخبرنا عن حاله قبل الزواج وبعده، فيقول: «تعرف من أقام أربعين سنة لم ينم الليل، ويتقوت كل يوم بخمس حبَّات، ويصلي صلاة الغداة[٣] على طهارة العشاء الآخرة؟ ثم قال: أنا هو، وهذا كله قبل أن أعرف أم عبد الرحمن! أيش أقول لمن زوجني؟! ثم قال: ما أراد إلا الخير»[٤].

د ـ معرفة الفارق بين التعدد في زمننا وزمان أسلافنا:

إذ أن أسلافنا إلى زمان الأجداد كانوا إذا عددوا فإن الواحد منهم يبقي امرأتيه أو نساءه في بيت واحد غالباً، وأطفاله تحت رقابته مجتمعين، والمؤونة عليه في ذلك قليلة، والمجتمع يقبل منه ذلك كله

(١) «صلاح الأمة»: ١/ ٣٢٤، نقلاً عن «تاريخ بغداد»: ٣/ ١٨١ ـ ١٨٦، «وفيات الأعيان»: ١/٥٠٣.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) الفجر.

(٤) «صلاح الأمة»: ١/ ٣٤٥، نقلاً عن «تاريخ بغداد»: ١/ ١٢٢.

بلا نكير ولا عويل، لكن اليوم إن عدد الشخص فعليه أن يعي المنغصات التالية:

١ ـ الزوجة الجديدة لا تقبل ـ في غالب الأحوال ـ إلا بمسكن منفرد وبعيد عن منزل الزوجة الأولى[١]، وهذا الأمر يقضي بانقسام الرجل بين بيتيه أو بيوته، وأن يتكلف النظر في أحوال أهله تكلفاً قد يشغله عن أمور دعوته شغلاً جزئياً أو كلياً، والعياذ بالله.

ويأتي هنا من قد يقول: إن النكاح عبادة؛ نعم، هذا صحيح، لكن أليست الدعوة عبادة أيضاً؟ وشتان بين العبادتين.

٢ ـ تفرق أهل الرجل وأولاده على هذا النحو يُصعب عليه تربيتهم، والنظر في عباداتهم والتزامهم بالإسلام في حياتهم، وهذا العصر الذي نعيش فيه عصر صعب، مليء بالملهيات الصارفات والمعاصي الخطيرات، وكان مَن قبلنا ـ على قلة المعاصي في زمانهم وسذاجتها ـ يجمعون أهلهم وأولادهم في مكان واحد غالباً، فلما صرنا إلى زماننا هذا اضطر الرجل إلى أن يفرقهم غالباً، فتفرق قلبه مع تفرقهم، وتشتت همه مع تشتتهم وخوفه عليهم.

٣ ـ المجتمع اتجه بقوة إلى رفض التعدد، وصار هذا الأمر يصور على أنه جريمة وخيانة والعياذ بالله، فمن تصدى لهذا الأمر ـ التعدد ـ في زماننا هذا فقد عرض نفسه لسهام وكلام قد يضطره لقضاء وقت طويل في رد ذلك عنه كان هو أحوج ما يكون إلى قضائه في طلب

(١) أنا أتحدث هنا عن حال الأغلب الأعم من الناس، أما مجتمعات القرى والبلدات البعيدة فلها أوضاعها الخاصة بها، التي لا يصح أن تكون منغصة على ما قررته هاهنا، أو أن تكون هي القاعدة التي يُبنى عليها.

العلم أو نشر الدعوة، ولا يعني هذا الاستسلام لما فرضه المجتمع، لكني أنبه إلى ما قد ينشغل به الداعية أو طالب العلم إن عدد في مثل هذا المجتمع، وصار غرضاً لسهام الناس.

٤ ـ هدم النكاح الأول في كثير من الأحوال بسبب التعدد، وهذا مشاهد معلوم، وينبني عليه تفرق الأولاد، وعداوتهم للوالد أو لأولاد الأب أو لكليهما معاً، وفي ذلك من المفاسد والشرور ما فيه.

هـ ـ ضبط ميزان الفهم في هذه القضية:

حيث إن بعض الدعاة الصالحين قد يجادل في كل هذا الذي أوردته أو بعضه بدعوى أن الرسول ﷺ قد عدد، والصحابة رضي الله عنهم قد عددوا، وكانوا مشغولين كل الانشغال، وهم سادة الدعاة وقادتهم، فمثل هذا المجادل لم يفهم ما أوردته آنفاً من أوجه الخلاف بين زماننا وزمانهم، ويتلخص في الآتي:

ـ قبول المجتمع الطاهر آنذاك للتعدد بلا نكير ولا كثرة مشكلات أو كبير عقبات.

ـ اجتماع الرجل حول أهله وسهولة متابعتهم.

ـ قلة المعاصي أو ندرتها في زمانهم الطاهر؛ بحيث لم يكن يشغلهم الخوف على الأهل والأولاد عن هدفهم الأسمى.

ومما يعين على ضبط الميزان في هذا الأمر؛ هو أن بعض من انشغل بطلب العلم أو الدعوة أو التعبد أو كل ذلك كان قد اكتفى بواحدة، أو لم يتزوج على الإطلاق، ولم يَتَسرَّ[١]، وهؤلاء جملة

(١) لم تكن له جارية.

وافرة من سلفنا الصالح ومن جاء بعدهم، ومن هؤلاء الأطهار:

١ ـ مالك بن دينار السِّجِسْتاني، أبو يحيى الزاهد، التابعي المتوفَّى سنة ١٢٧هـ، رحمه الله تعالى.

٢ ـ إبراهيم بن أدهم التميمي، أحد مشاهير العباد وأكابر الزهاد، توفي سنة ١٦٢هـ، رحمه الله تعالى.

٣ ـ محمد بن جرير الطبري، أبو محمد، الإمام العالم المشهور، توفي سنة ٣١٠هـ، رحمه الله تعالى.

٤ ـ أبو إسحاق الشيرازي، إبراهيم بن علي الفيروز آبادي الشيرازي الشافعي الإمام، المتوفى سنة ٤٧٦هـ، رحمه الله تعالى.

٥ ـ أبو الفتح نصر بن فتيان، ناصح الدين الحنبلي، النهرواني ثم البغدادي، الفقيه الزاهد، توفي سنة ٥٨٣هـ، رحمه الله تعالى.

٦ ـ أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، الشافعي، الإمام الكبير المشهور، المتوفَّى سنة ٦٧٦هـ، رحمه الله تعالى.

٧ ـ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ابن تيمية، شيخ الإسلام، الإمام المشهور، المتوفَّى سنة ٧٢٨هـ، رحمه الله تعالى.

٨ ـ محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز، عز الدين الحموي الشافعي، ابن جَماعة، الأستاذ الإمام، الشافعي، المتوفَّى سنة ٨١٩هـ، رحمه الله تعالى.

٩ ـ علي بن حسين بن عمر، العالم اليمني المكي، المتوفّى سنة

---

(١) سردت هؤلاء مقتبساً من كتاب «الذين لم يتزوجوا من العلماء وغيرهم»، للشيخ بكر أبي زيد حفظه الله تعالى.

١٠٦٩هـ، رحمه الله تعالى[١].

فهذه جملة من العلماء الذين لم يتزوجوا قط، والله أعلم بسبب ذلك، وليسوا ـ في هذا ـ قدوة لنا، لكني إنما ذكرتهم لبيان ما يعين على ضبط الاندفاع في قضية التعدد بدون داع أو حاجة، وكان الإمام السخاوي[٢] ـ رحمه الله تعالى ـ قد نقل نقلاً لطيفاً في هذه المسألة؛ إذ قال ـ رحمه الله تعالى ـ متحدثاً عن أحد مشايخ زمانه: «انقطع إلى الله تعالى، وأعرض عن الاجتماع بالناس، بل والإفتاء، إلا باللفظ أحياناً. . . وكان يقول مشيراً لأعباء التزويج على سبيل المماجنة[٣]: لو كانت الشركة تصح في الزوجات لشاركت في جزء من أربعة وعشرين جزءاً!!».

وهو مسبوق بنحوه من الأوزاعي[٤]؛ فإنه قال لصديق له: «إن استطعت أن تكتفي في هذا الزمان بنصف امرأة فافعل!!»[٥].

يقول مثل هذا الإمام الأوزاعي في ذلك الزمان؛ فماذا نقول نحن

---

(١) **الإمام السخاوي**: الشيخ الإمام العلامة الرُّحَلَة الحافظ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي القاهري الشافعي، ولد سنة ٨٣١هـ، وأخذ عن كثير من المشايخ، واختص بشيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، وكان يحبه ويثني عليه، وله مصنفات كثيرة، توفي سنة ٩٠٢هـ بالمدينة المنورة بعد مجاورته زمناً فيها، رحمه الله تعالى. انظر: «النور السافر»: ١٦ ـ ٢٠.

(٢) الممازحة والمداعبة.

(٣) **الأوزاعي**: عبد الرحمن بن أبي عمرو الأوزاعي، أبو عمرو الفقيه، ثقة جليل، مات سنة ١٥٧هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ٣٤٧.

(٤) الذين لم يتزوجوا من العلماء ١١٦، ١١٧، نقلاً عن «الضوء اللامع»: ٤/ ١٧.

(٥) **ابن الجوزي**: الشيخ الإمام الحافظ المفسر، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، ابن الجوزي، ولد سنة تسع أو عشر وخمسمئة ببغداد، وسمع من مشايخ كثيرين، وكان رأساً في الوعظ بلا مدافعة، وله مصنفات كثيرة، توفي سنة ٥٩٧هـ ببغداد، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٣٦٥ ـ ٣٨٤.

في هذا الزمان؟!

وأختم حديثي بنقل لطيف عن ابن الجوزي[١] ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال:

«من أعظم الضرر الداخل على الإنسان كثرة النساء، وإنه أولاً يتشتت همه في محبتهن، ومداراتهن، وغيرتهن، والإنفاق عليهن، ولا يأمن إحداهن أن تكرهه وتريد غيره، فلا تتخلص إلا بقتله، ولو سلم من جميع ذلك لم يسلم في الكسب لهن، فإن سلم لم يَنْجُ من السآمة لهن أو لبعضهن، ويطلب ما لا يقدر عليه من غيرهن، حتى إنه لو قدر على نساء بغداد كلهن، فقدمت امرأة مستترة من غير البلد، ظن أنه يجد عندها ما ليس عندهن. . . وإذا سلم من كل أذى يتعلق بهن أنهك بدنه في الجماع، فيكون طلبه للالتذاذ مانعاً من دوام الالتذاذ، ورب لقمة منعت لقمات، ورب لذة كانت سبباً في انقطاع لذات، والعاقل من يقتصر على الواحدة إذا وافقت غرضه، ولا بد أن يكون فيها شيء لا يوافق، إنما العمل على الغالب»[٢].

فلا ينبغي إذاً أن يأتي شخص بعد هذا كله ليقدم على التعدد بلا روية ولا نظر في عواقب الأمور بدعوى أنه سنة وأنه الأصل، ولا يُفهم من كلامي آنفاً أنني ضد التعدد، لا بل أدعو كل من يستطيع ضبط شؤونه على النحو الذي ذكرته آنفاً، وكان يرى في نفسه القدرة على هذا بالأوجه المتعددة للقدرة المذكورة آنفاً، أدعوه إلى الإقدام على التعدد بلا تردد، وأبارك له وأشد على يده، فالعوانس كثر، والمجتمع بحاجة

(١) «صيد الخاطر»: ٣٦١.

إلى التعدد لمعالجة هذه الظاهرة، لكن كلامي موجه للدعاة الذين هم صفوة المجتمع بلا ريب، ومطلوب منهم أمور جليلة، ثم تراهم يعددون فينكصون على أعقابهم، أو يكتفون من الدعوة بالاسم دون المعنى، فهذا المسكين قد فرَّط في شيء عظيم بسبب شهوة في قضية لم يُحكمها ولم ينظر في عواقبها

أما عوام الناس الذين لا هدف لهم، ولا عمل يشغلهم، فلعله من باب صيانتهم وبعدهم عن الرذائل أن يعددوا إن أخذوا ببعض الجوانب المذكورة آنفاً، واحتاطوا لأنفسهم، هذا؛ وإن كانت هذه الحيطة ليست من طبع العوام المتهافتين على ما يشتهونه، لكن مَن أحكم منهم ما ذكرته استفاد استفادة عظيمة.

الأثر الثالث: التباطؤ في قضاء الأمور:

الترف والانغماس فيه واعتياده والميل إليه جالب للتباطؤ في قضاء الأمور، والقعود عن إتمامها على وجهها الذي ينبغي لها؛ إذ المترف غالباً يميل إلى التسويف في الشؤون التي يراها صعبة أو ستجر عليه شيئاً من التعب والمعاناة، ويخشى من ملابستها والتعرض لها، فتراه يقضي الأمر ـ الذي يتم في يوم ـ في شهر، ويستغرق الأمر اليسير من حياته زمناً طويلاً، هذا إن فرغ منه أصلاً!! وهكذا تراه دوماً وأبداً يتخبط في شؤونه ويسوف في قضائها، فتنقضي حياته وهو لم يقدم شيئاً ذا بال، ولم يرتق في سلم المجد الدرجاتِ التي كان ينتظر من مثله أن يرتقيها.

وهذا التباطؤ ـ لمن أراد أن يصيب كبد الحقيقة ـ هو سر تأخر الدعوات وانصراف وجوه الناس وسُراتهم عنها، ومكوثها دهراً طويلاً

في مكانها، لا تكاد تتزحزح عنه، والعجب أنك ترى من يتباطأ في شؤون الدعوة إلى الله تعالى غزالاً رشيقاً سريعاً في شؤون حياته الخاصة وما يدر عليه مزيداً من الرفاهية والإخلاد إلى الأرض، فيطول عجبك حينئذ فتتساءل: أهذا هو ذاك؟! وما هو السر الدقيق الذي يدعوه لمثل هذا الصنيع؟ والجواب واضح كل الوضوح عندي:

الذي يدعوه لمثل هذا هو الترف المقعد عن المعالي، الموقع في سِفْساف الأمور ودناياها، المبعد عن ملابسة الأمور الصعبة، والذي يدعو النفس إلى التخوف من كل إقدام وإقبال.

أعرف رجلاً محسوباً على الدعاة تجاوزاً ومداراة، من شأنه أن يملأ المجالس ضجيجاً إن حضر، ويطالب بالحركة التي تجلب البركة، وقد أراد منه بعض صحبه أمراً هيناً يسيراً عليه يقيناً، في متناول قدراته ومواهبه، بل هذا الأمر يكاد يوافق رغبته ومشتهاه، هل تدرون كم مضى على هذا الأمر فلم يُقض حتى الآن؟ قرابة خمس سنوات كاملات، فبربكم أخبروني: أمر يُقضى في شهر أو شهرين، هل يصلح أن يمكث فيه «داعية» خمس سنوات فلا يقضيه؟! وهل هذا يصلح أن يسمى إلا تباطؤاً؟ بل هو موات وأي موات!! وأي دعوة ترتجي أن ترتقي على أمثال هذا المسكين المضياع؟! لكن الترف والإخلاد إلى الأرض قضيا على كل حركة نافعة مفيدة للأمة، كان يمكن أن تُقضى على يديه وأيدي أمثاله.

قد يكون المثال الذي ذكرته آنفاً مثالاً بالغ الحدة، لكنه موجود في صفوف الدعاة والصالحين على درجات متفاوتات، والقاصمة المهلكة إذا كثر أمثال أولئك المتباطئين، وازدادت نسبتهم، وعلا صوتهم،

وارتفعت مكانتهم، هنا يخاف المرء المتفائل أن يُكبِّر أربعاً على كل أمل يرتجى من وراء جهود أولئك ومحاولاتهم الإصلاحية، هذا إن صح أن يسمى تباطؤهم جهداً في باب الإصلاح وعملاً في قضايا الدعوة.

ومن طلب أمثلة أخرى فأقول له إن الأمثلة أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، وكل ما ينبغي لمثل هذا الطالب هو أن يتلفت حوله ليجد الأمر على ما ذكرت ووفق ما بينت، فهناك تباطؤ عام، مشهود ملاحظ، ومن أنكر هذا أو خالفه فكأنما ينكر رؤية الشمس في رابعة النهار، أو القمر ليلة التمام، ليس دونه سحاب، والله المستعان.

والناظر في الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح يجد الأمر على خلاف هذا، فالله تعالى قال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقال ليحيى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

ولما تباطأ يحيى عليه السلام شيئاً في إيصال الدعوة لبني إسرائيل، ولم يكن ذلك التباطؤ عن تقصير، فحاشاه عليه الصلاة والسلام، لكن كان لمصلحة شرعية، لما تباطأ شيئاً ما نصحه عيسى عليه السلام، واسمع إلى النبي الأعظم ﷺ يصف ذلك بقوله الشريف:

«**إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله يأمرك بخمس كلمات لتعمل بها، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها،**

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: باب ما جاء مثل الصيام والصلاة والصدقة، وقال: حديث حسن صحيح.

فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ المسجد. . . »[1].

وهذا النبي الأعظم ﷺ يقول:

«بادروا بالأعمال الصالحة سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً مُنسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مُفَنِّداً[2]، أو موتاً مُجْهِزاً، أو الدجال؛ فشر غائب ينتظر، أو الساعة؛ فالساعة أدهى وأمر»[3].

وقال ﷺ:

«اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[4].

ولله در عمر رضي الله عنه حيث قال:

«القوة في ألا تؤخر عمل اليوم لغد»[5].

فكيف لو رأى زماننا، ورأى تأخير عمل اليوم إلى سنة أو أكثر؟!

الأثر الرابع: الدعة والكسل:

إن من أعظم ما يجره الترف على صاحبه هو أن يعوده الدعة والكسل والإخلاد إلى الأرض، وهذا مرض عُضال وداء خطير، يقعد بصاحبه عن طلب المعالي، ويصعب عليه أموره كلها، ويجعله أقرب

---

(١) جالباً للخرف.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب الزهد، باب ما جاء في المبادرة بالعمل، وهو حسن.

(٣) حسَّن الحافظ العراقي إسناد الحديث، وعزاه لابن أبي الدنيا. انظر: «آفات على الطريق»: ٢/ ١٨١.

(٤) «آفات على الطريق»: ٢/ ١٨١، نقلاً عن «أخبار عمر»: ٢٨١.

إلى المُقعد منه إلى الإنسان النشيط العامل، ولقد كان سلفنا رضي الله عنهم على غاية من النشاط والحيوية؛ وذلك لبعدهم عن الترف ومقدماته ومسبباته، فهذا جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول:

بلغني عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاشتريت بعيراً، ثم شددت رحلي، فسرت إليه شهراً حتى قدمت الشام، فإذا هو عبد الله بن أُنيس[1]، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله، قلت: نعم، فخرج عبد الله بن أنيس فاعتنقني، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**يحشر الله الناس يوم القيامة عراة غُرْلاً[2] بهماً** ـ فقلنا: ما بُهماً؟ قال: «**ليس معهم شيء**» ـ **فيناديهم بصوت يسمعه مَنْ بَعُد ومَنْ قَرُبَ: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة وأحدٌ من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار وأحدٌ من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة**». قلنا: كيف هو؟ وإنما نأتي الله تعالى عراة غُرْلاً بُهماً؟! قال: «**بالحسنات والسيئات**»[3].

---

(١) **عبد الله بن أنيس**: الجهني، أبو يحيى المدني، حليف الأنصار، صحابي، شهد العقبة وأحداً، مات بالشام في خلافة معاوية رضي الله عنه سنة ٥٤هـ. انظر: المصدر السابق: ٢٩٦.

(٢) غير مختونين، تعود إلى مَن خُتن منهم قلفته.

(٣) «صلاح الأمة»: ١/ ١٧٣، وقال: صحيح بمجموع الطرق، أخرجه أحمد في المسند، والبخاري في الأدب المفرد، باب المعانقة؛ وذكره في صحيحه بصيغة الجزم في كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم، والحاكم في المستدرك، ووافقه الذهبي.

(٤) **أبو أيوب**: خالد بن زيد بن كُليب الأنصاري، أبو أيوب، من كبار الصحابة، شهد بدراً ونزل النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة عليه، مات غازياً بالروم سنة خمسين رضي الله عنه. انظر «التقريب»: ١٨٨.

الله أكبر! انظروا كيف سار جابر رضي الله عنه شهراً ليأخذ حديثاً واحداً فقط، وقارنوا حاله بما نحن عليه اليوم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يكن جابر منفرداً بهذا، بل كان أبو أيوب رضي الله عنه[(١)] قد صنع صنيعه، فقد خرج إلى عقبة بن عامر رضي الله عنه[(٢)] وهو بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، فلما قدم أتى منزل مسلمة بن مُخلِّد الأنصاري[(٣)]؛ وهو أمير مصر، فأُخبر به، فعجل فخرج إليه فعانقه، وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟! قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغير عقبة، فابعث من يدلني على منزله، قال: فبعث معه من يدله على منزل عقبة، فأُخبر عقبة به، فعجل فخرج إليه فعانقه، وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟! فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن، قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ستر مؤمناً في الدنيا على خزية ستره الله يوم القيامة**»، فقال له أبو أيوب: صدقت، ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعاً إلى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة بن مُخَلِّد إلا بعريش مصر!![(٤)].

الله أكبر! ما أعظم همم أولئك الأطهار؟! وما أبعدهم عن الترف

---

(١) **عقبة بن عامر**: الجهني، صحابي مشهور، ولي إمرة مصر لمعاوية رضي الله عنهما ثلاث سنين، وكان فقيهاً فاضلاً، مات قرب الستين. انظر: المصدر السابق: ٣٩٥.

(٢) **مسلمة بن مُخَلِّد الأنصاري**: الزُّرقي، صحابي صغير، سكن مصر ووليها مرة، مات سنة ٦٢هـ رضي الله عنه. انظر: المصدر السابق: ٥٣٢.

(٣) «صلاح الأمة»: ١/ ١٧٤، وقال: الحديث حسن بمجموع الطرق؛ رواه أحمد والحميدي.

والكسل والدعة؟!

هذا؛ والعجيب أنه لم يبق بمصر لينظر إلى ما فيها من جمال وآثار، بل سارع إلى العودة إلى المدينة، سبحان الله العظيم!

وهذا سعيد بن المسيِّب[١] ـ رحمه الله تعالى ـ يقول:

«إن كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد»[٢].

وهذا الإمام إبراهيم الحربي[٣] يقول عنه ثعلب[٤]:

«ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس لغة ولا نحو من خمسين سنة»[٥].

وأختم سير الأطهار في البعد عن الكسل والدعة بهذا الخبر عن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري[٦] رحمه الله تعالى؛ الذي «كان يصلي

---

(١) **سعيد بن المسيِّب** بن حزن القرشي المخزومي، أحد العلماء الأثبات، الفقهاء الكبار، قال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه، مات بعد سنة تسعين، وقد جاوز الثمانين، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ٢٤١.

(٢) «صلاح الأمة»: ١/ ١٧٤، «المعرفة والتاريخ»: ١/٤٦٨، ٤٦٩، «الرحلة في طلب الحديث» للبغدادي: ١٢٧.

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) **ثعلب**: العلامة المحدث، إمام النحو، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد، الشيباني بالولاء، البغدادي، صاحب التصانيف، ثقة، حجة، ديِّن، صالح، مشهور بالحفظ، توفي سنة ٢١٩هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٥ ـ ٧.

(٥) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٠٩٤.

(٦) **زكريا الأنصاري**: بن محمد الأنصاري المصري، عُمِّر طويلاً، ورُزق تلامذة نجباء، وبارك الله في مصنفاته، توفي بالقاهرة عن مئة سنة، وذلك سنة ٩٢٦هـ، رحمه الله تعالى. انظر «الكواكب السائرة»: ١/ ١٦٩ ـ ٢٠٧.

(٧) المصدر السابق: ١/ ٢٠٢.

النوافل من قيام مع كبر سنه وبلوغه مئة سنة أو أكثر، وهو يميل يميناً وشمالاً، لا يتمالك أن يقف بغير ميْل؛ للكبر والمرض، فقيل له في ذلك، فقال: يا ولدي، النفس من شأنها الكسل، وأخاف أن تغلبني وأختم عمري بذلك»(١).

وقد ذمت العرب قديماً الكسل والدعة على خلاف حالهم اليوم، فقالوا:

«ما لزم أحدٌ الدعةَ إلا ذلَّ، وحب الهُوينى يُكسب الذل»(٢).

وقالوا أيضاً:

«إن الراحة حيث تعب الكرام أودع، لكنها أوضع، والقعود حيث قام الكرام أسهل، لكنه أسفل»(٣).

وقالوا:

«وإياك وإيثار الخَفْض(٤) والدَّعَة، والميل إلى الراحة والسعة، فإن خواتم هذه الخصال مذمومة، وعقباها كريهة وخيمة... ودع الضجر والكسل وحب الحاجة، فإنها من أخلاق البهائم»(٥).

لذلك كله ذمَّ الشارع الكسل، وعده نقصاً، ففي كتاب الله تعالى المجيد جاء قوله في معرض الذم للمنافقين: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤].

---

(١) «محاضرات الأدباء»: ٤٤٨.

(٢) المرجع السابق.

(٣) **خفض العيش**: نعومته.

(٤) «البصائر والذخائر»: لأبي حيان التوحيدي: ٢/ ٨٠٧.

(٥) صحيح الإمام البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ من غلبة الرجال.

وكان ﷺ يتعوذ من الكسل، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول:

«**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل**»[(١)].

الأثر الخامس: ضعف الجسد وخَوَر العزيمة:

وهذه قضية خطيرة؛ إذ لا يعود المترف يحتمل المشاق، ولا يصبر على اللأواء، ويصبح أشبه بالنساء منه بالرجال، فخطرات النسيم تجرح خديه، ولمس الحرير يدمي بنانه، «والمترف مريض بالنعمة، لا يستطع أن يقابل الحياة بما هي عليه من شدة ورخاء، وسعة وقسوة، ومنافع وشرور، وظِل وحَرور، والمال وحده لا يدفع ضرراً ولا يجلب سعادة، والحياة صبر، ولم يتعوده المترف، والحياة تغلب على المصاعب والمترف لا يعرفها، فأقل شيء يصيبه يعتبره صدمة، ورجل الحياة لا بد أن يلابس الحياة كما هي في جميع أوضاعها، وبجميع تقلباتها»[(٢)].

وقال الأستاذ أبو زهرة ـ رحمه الله تعالى ـ:

«فالترف يذهب النخوة، ويضعف قوة النفس، ويجعل الإنسان ضعيفاً مستكيناً عبداً لشهواته، ما أذلَّ الأممَ شيءٌ كالترف، وما ذهب بقوة الأمم شيءٌ كالترف»[(٣)].

---

(١) «خلق ودين»: ١٥٢.

(٢) مجلة لواء الإسلام: العدد السادس، ١٣٨٢هـ، ص٣٨٨.

(٣) أي: كثير منهم فعل ذلك، وليسوا كلهم بالطبع، ومعنى استباحوا الخمور أي: جعلوها كالمباحة في تناولها، والإكثار من شربها لا على معنى أنهم رأوها مباحة حلالاً، لا ومعاذ الله.

هذا، وقد قال:

«والتتار عندما جاؤوا منحدرين من أعلى الصين كالصخرة، لا تلوي على شيء إلا أخذته، كانوا خشنين، جفاة غلاظاً، والمسلمون في ذلك الوقت كانوا يعيشون بين الجواري، بل كانوا قد تناولوا المحرمات، واستباحوا الخمور[(١)]، فانساب التتار في أرض المسلمين، حتى إن ابن كثير يقول: إنهم ما كانوا في فتحهم إلا على مقدار سيرهم، فبمقدار سرعة السير كانت سرعة الفتح؛ إذ لم يعوقوا؛ لأن المسلمين كانوا قد أصابهم الترف، حتى إذا أحس المسلمون بالويلات واخشوشنوا، وباعدوا الترف، وكان التتار قد ذاقوا الترف، عندئذ التقت بهم جيوش الشام ومصر فأعملت السيوف في أقفيتهم»[(٢)].

وقد كانت عزيمة سلفنا ماضية، وأجسادهم قوية في طلب العلم ورفعة الأمة، بل كانوا يغالبون أنفسهم إن وقع لجسدهم شيء من الضعف أو العلة، ومن أعجب ما قرأته في حياتي في هذا الأمر ـ أمر مغالبة الضعف أو العلة الناشئة ـ ما حدث للإمام يعقوب بن سفيان الفَسَوِيِّ[(٣)] رحمه الله تعالى؛ فاستمع إليه حيث يقول:

«أقمت في الرحلة ثلاثين سنة. . . فدخلت إلى بعض المدن، فصادفت بها شيخاً احتجت إلى الإقامة عليه للاستكثار عنه، وقَلَّت

(١) المصدر السابق، ولم ينتصر المسلمون عليهم لأن التتار ذاقوا الترف، لا إنما انتصروا عليهم بعودتهم إلى دينهم وإسلامهم.

(٢) **يعقوب بن سفيان الفسوي**: الفارسي، أبو يوسف الفسوي، ثقة، حافظ، مات سنة ٢٧٧هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ٦٠٨.

(٣) انقضى ومضى.

نفقتي، وبعدت عن بلدي، فكنت أدمن الكتابة ليلاً وأقرأ نهاراً، فلما كان ذات ليلة كنت جالساً أنسخ وقد تصرَّم الليل(١)، فنزل الماء في عيني، فلم أبصر السراج ولا البيت، فبكيت على انقطاعي، وعلى ما يفوتني من العلم، فاشتد بكائي حتى اتكأت على جنبي فنمت، فرأيت النبي ﷺ في النوم فناداني: يا يعقوب بن سفيان، لم أنت بكيت؟ فقلت: يا رسول الله ﷺ، ذهب بصري فتحسرت على ما فاتني من كَتْب سنتك، وعلى الانقطاع عن بلدي، فقال: ٱدْنُ مني، فدنوت منه، فأمرَّ يده على عينيَّ فكأنه يقرأ عليهما، قال: ثم استيقظت فأبصرت، فأخذت نُسخي وقعدت في السراج أكتب!!»(٢).

الله أكبر! هذا أعجب وأغرب خبر قرأته في حياتي، فهذا رجل قد أصابته علة مفاجئة؛ وهي العمى، وحسبك بها، فلما عوفي منها لم يرجع سريعاً إلى بلده، ولم يخفف من القراءة والكتابة، بل انقلب يكتب كما كان، وتغلب على ما يمكن أن ينشأ من ضعف في عزيمته إثر العمى الذي نزل به.

الله أكبر! بهذا انتصر المسلمون الأوائل وسادوا، وبترك هذه

---

(١) «صلاح الأمة»: ١/ ٩٣، نقلاً عن «سير أعلام النبلاء»: ١٣/ ١٨١، ١٨٢.

(٢) **هارون بن موسى** بن صالح القيسي القرطبي المجريطي الأصل، أبو نصر، أديب من العلماء، من أهل قرطبة، كان ممن لازم أبا علي القالي، وكان صالحاً منقبضاً، عاقلاً، مَهيباً، توفي سنة ٤٠١هـ، رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٨/ ٦٣.

(٣) **أبو علي القالي**: إسماعيل بن القاسم بن عيذون، ولد في منازجرد على الفرات الشرقي سنة ٢٨٨هـ، ونشأ بها، ثم رحل إلى العراق فتعلم في بغداد، ومكث فيها ٢٥ سنة، ثم رحل إلى المغرب سنة ٣٢٨هـ، فدخل قرطبة، له عدة مصنفات نافعة، وتوفي بقرطبة سنة ٣٥٦هـ. انظر: «الأعلام»: ٣٢١، ٣٢٢.

العزيمة خُذلنا نحن وانهزمنا وتخلفنا.

ويقارب هذا الخبر الخبر التالي، الذي قصَّه أبو جندل هارون بن موسى القيسيُّ[١] الأديب النحوي القرطبي، قال:

«كنا نختلف إلى أبي علي القالي البغداديِّ[٢] ـ رحمه الله ـ وقت إملائه النوادر بجامع الزهراء في قرطبة، ونحن في فصل الربيع، فبينما أنا ذات يوم في بعض الطريق، إذ أخذتني سحابة، فما وصلت إلى مجلسه ـ رحمه الله تعالى ـ إلا وقد ابتلت ثيابي كلها، وحوالَيْ أبي عليٍّ أعلامُ أهل قرطبة، فأمرني بالدنو منه، وقال لي: مهلاً يا أبا نصر، لا تأسف على ما عرض لك، فهذا شيء يضمحل عنك بسرعة بثياب غيرها تبدلها، قد عرض لي ما أبقى بجمسي ندوباً تدخل معي القبر، ثم قال: أنا كنت أختلف إلى ابن مجاهد[٣] ـ رحمه الله تعالى ـ فأدلجت إليه؛ أي: ذهبت إليه من آخر الليل قبل الفجر؛ لأتقرب منه[٤]، فلما انتهيت إلى الدرب[٥] الذي كنت أخرج منه إلى مجلسه ألفيته[٦] مغلقاً، وعسر عليَّ فتحه[٧]، فقلت: سبحان الله! أبكِّر هذا

---

(١) **ابن مجاهد**: أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد، ولد سنة ٢٤٥هـ، كان كبير العلماء بالقراءات في عصره. من أهل بغداد، وكان حسن الأدب، رقيق الخلق، فطناً جواداً، له عدة كتب، توفي سنة ٣٢٤هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ١/ ٢٦١.

(٢) أي: ليكون في الصف الأول في مجلسه.

(٣) الطريق.

(٤) وجدته.

(٥) فتح بابه.

(٦) نفق.

البكور، وأُغلب على القرب منه؟! فنظرت إلى سرب[1] حفر تحت الأرض بجنب الدار، فاقتحمته، فلما توسطته ضاق بي، ولم أقدر على الخروج ولا على النهوض، فاقتحمته أشد اقتحام حتى نفذتُ بعد أن تخرقت ثيابي، وأثَّر السرب في لحمي حتى انكشف العظم!! ومنَّ الله عليَّ بالخروج، فوافيت مجلس الشيخ على هذه الحال، فأين أنت مما عرض لي؟ وأنشدنا:

دببتُ للمجد والساعون قد بلغوا
جهدَ النفوس وألقوا دونه الأُزُرا[2]
وكابدوا المجد حتى مَلَّ أكثرهم
وعانق المجدَ مَنْ أوفى ومَن صبرا
لا تحسبِ المجد تمراً أنت آكله
لن تبلغ المجدَ حتى تَلْعَقَ الصَبِرا[3][4]

وهذا الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الباقي البَزَّاز[5]، يقص قصة

---

(١) جمع إزار.
(٢) المُرُّ.
(٣) «صلاح الأمة»: ١/ ٣٦١، نقلاً عن «إنباه الرواة»: ٣/ ٣٦١.
(٤) **أبو بكر محمد بن عبد الباقي البزاز**: الشيخ الإمام، العالم المتفنن، الفَرَضي، مسند العصر؛ محمد بن عبد الباقي بن محمد الخزرجي السلمي الأنصاري البغدادي، ولد سنة ٤٤٢هـ، وتوفي سنة ٥٣٥هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٣ ـ ٢٨.
(٥) هناك.
(٦) «صلاح الأمة»: ١/ ٤١٣، نقلاً عن «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب: ١/ ١٩٣.

أسره، وكيف لم يمنعه من تعلم العلم، ولم يؤثر في عزيمته ولا في همته، فيقول:

«أسرتني الروم، وبقيت في الأسر سنة ونصفاً، وكان خمسة أشهر الغُلُّ في عنقي، والسلاسل على يدي ورجلي، وكانوا يقولون لي: قل المسيح ابن الله حتى نفعل ونصنع في حقك، فامتنعت وما قلت، ووقت أن حبست كان ثَمَّ[(١)] معلم يعلم الصبيان الخط بالرومية، فتعلمت في الحبس الخط الروميَّ!!»[(٢)].

وهذا الإمام إبراهيم الحربي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول مبيناً قوة عزيمته، وإخفاءه الضعف الذي طرأ على جسده، والعور الذي أصابه:

«ولا شكوت إلى أهلي وأقاربي حمى أجدها، لا يغم الرجل نفسه وعياله، ولي عشر سنين أبصر بفرد عين ما أخبرت به أحداً»[(٣)].

الله أكبر! إن هذا لشيء عجيب.

ومن مظاهر ضعف الجسد وخَوَر العزيمة كثرة التأفف من شدة الحر، والاستسلام له، وعدم القدرة على العمل في الأجواء المناخية الصعبة، والمكث في الغرف المكيفة، وكراهية الخروج منها، وهذا كله يورث العاملين الضعف والخور، وعدم قضاء الأعمال المهمة،

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٠٩٥.

(٢) **محمد بن يحيى** بن عبد الله الذهلي النيسابوري، ثقة، حافظ جليل، مات ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ٢٥٨هـ وله ست وثمانون سنة. انظر: «التقريب»: ٥١٢.

(٣) وذلك لأن المكتبة مظلمة.

(٤) «صلاح الأمة»: ١/ ٢٥٩، نقلاً عن «تاريخ بغداد»: ٣/ ٤١٩، و«سير أعلام النبلاء»: ١٢/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

وإضاعة الأوقات، ولم يكن الصالحون كذلك، فهذا الإمام محمد بن يحيى الذهلي[١] يحدث عنه ابنه فيقول:

«دخلت على أبي في الصيف الصائف وقت القائلة وهو في بيت كتبه، وبين يديه السِّراج[٢]، وهو يصنف، فقلت: يا أبت، هذا وقت الصلاة ودخان هذا السراج بالنهار، فلو نفَّست عن نفسك.

قال: يا بني، تقول هذا وأنا مع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين»[٣].

فهذا العالم في شدة الصيف قد جلس في غرفة مكتبه يكتب، وقد تضاعف عليه الحر واشتد بدخان السراج، فما أعظم أولئك؟! وما أقلَّ اكتراثهم بالحر؟!

وهذا الحافظ الحُميديُّ محمد بن فتوح الأندلسي ثم البغدادي[٤] ـ رحمه الله تعالى ـ يحكي عنه أحد أصحابه فيقول:

«كان الحميدي من اجتهاده ينسخ بالليل من الحر، فكان يجلس في إجَّانة[٥] ماء يتبرد به»[٦].

الأثر السادس: تعاطي بعض المعاصي والإصرار عليها:

إن من آثار الترف الواضحة تعاطي بعض المعاصي والإصرار

(١) **الحافظ الحميدي**: الإمام القدوة، الحافظ، شيخ المحدثين، ولد قبل سنة ٤٢٠هـ، وتوفي سنة ٤٨٨هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ١٢٠ ـ ١٢٧.

(٢) إناء واسع.

(٣) «صلاح الأمة»: ١/ ٤١٢.

(٤) يصنع له ما يسمى بالمساج.

عليها، وربما جرت متعاطيها إلى شيء من الكبائر والعياذ بالله تعالى؛ وذلك لأن المترف غالباً كثير السفر والانتقال، وقد يجره هذا إلى ما لا يحمد عقباه، ومن أوضح الأمثلة على ما ذكرته من تعاطي بعض الصغائر والإصرار عليها هو تكرار النظر المحرم والتلذذ به، وطلبه، والاسترواح إليه، وهذا الأمر إن تمكن من شخص ما فهو على خطر كبير، والخوف أن يجره هذا الأمر إلى شيء من الكبائر، والعياذ بالله تعالى.

وبعض الناس في سفره قد يطلب من يغمز جسده[١]، وهذا لأجل الترف لا لمرض أو حاجة، وهذا الغامز قد يتعدى إلى مواضع لا يحل له لمسها، بل إن بعضهم قد رُئي في بلد أوروبي في محل لتزيين الجسد والعناية به، وقد تناولت قدمه إحدى الفتيات لتقص منها الأظافر وتُعنى بالبشرة!! وما انغمس هذا المسكين فيما انغمس فيه ـ وهو محسوب من الصالحين ـ إلا بسبب الترف الذي جره لمثل هذا الذي لا يحل له، ولا يليق بأمثاله.

وبعض الصالحين ـ أو من يُحسب من الصالحين ـ تجده بسبب انغماسه في وظيفة يشاركه فيها النساء[٢] يترخص في الحديث معهن، والخلوة بهن، والنظر إليهن، بل الخروج ـ إذا سافر ـ معهن للأسواق وأماكن النزه، ولا تجده يتحرج من هذا، وأجزم أن الذي أذهب الحرج من قلبه هو عز الوظيفة، ورفعة الجاه، وكثرة المال، وحب الدنيا، والميل إلى شهواتها ومخالطة عصاة أهلها مخالطة أنست

(١) وذلك نحو الأطباء والطيارين.

صاحبنا هذا كثيراً من الحدود الشرعية، وقد يسأل سائل: وهل يفعل مثل هذا الصالحون؟! وأقول: نعم، إذا انغمسوا في الترف.

ومن أسوأ أنواع الوقوع في المعاصي:

الترخص والتساهل في أمر الصغائر:

وهذا المرض قد لا يُفطن إليه؛ وهو يفعل فعله في النفوس، فتخلد إلى الأرض، وتثقل، وتدع العمل والدعوة، بل قد تدع الالتزام بدين الإسلام، والعياذ بالله.

أعرف رجلاً كان صاحب عبادة ظاهرة ودعوى عريضة، فعرض له شيء من التساهل والترخص، فأخذ به، واستمرأه وأكثر منه، حتى رأيته بعد ذلك عبرة للمعتبر.

وأعرف آخر مثله؛ كان يملأ الدنيا ضجيجاً، ويكثر من ادعاء العلم والعمل، حتى أخذ بالرخص وترك العزائم بالكلية، فصار في عداد العوام المقصِّرين.

وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه:

«إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر

---

(١) طعامهم.

(٢) مقداراً صالحاً.

(٣) قال الإمام الهيثمي: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط؛ ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داوَر القطان، وقد وُثِّق. انظر: «مجمع الزوائد»: ١٠/ ١٩٢.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٢٩.

(٥) المقصود بالمسكر هنا النبيذ المختلف فيه، لا الخمر المجمع على أنها حرام.

صنيعُ القوم[(١)]، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً[(٢)]، فأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها»[(٣)].

وقال سليمان التيميُّ: «لو أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله»[(٤)].

ودخل إسماعيل القاضي على الخليفة العباسي المعتضد بالله، فدفع إليه كتاباً فنظر فيه، فإذا قد جُمع له فيه الرخص من زلل العلماء، فقال: مصنف هذا زنديق!

قال: ألم تصح هذه الأحاديث؟

قال: بلى، ولكن من أباح المسكر[(٥)] لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء، وما من عالم إلا وله زلة، ومن أخذ بكل زلل العلماء ذهب دينه، فأمر المعتضد بإحراق الكتاب[(٦)].

الأثر السابع: حب الحياة وكراهية الموت:

لقد عُرف المسلمون الأوائل رضي الله عنهم أنهم يحرصون على الموت في سبيل الله تعالى حرص أعدائهم على الحياة، فكان هذا الحرص دافعاً لهم إلى تسطير أعظم صفحات التاريخ نصاعة وعظمة وجلالاً، وصار لهم بهذا المكانة العالية بين الأمم، وأنشؤوا لهم هيبة في قلوب أعدائهم مكنتهم بها من رقابهم، ودفعت عنهم شرور المفاسد طويلاً، فلما أخلد كثير من المسلمين إلى الأرض وارتضوا الحياة الدنيا وأحبوها غلب عليهم كراهية الموت وكراهية ترك ما هم فيه من متع وترف، وهذا هو عين ما نشاهده اليوم عند أكثر المسلمين، لكن دعني

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٩٩١.

من الحديث عن عامة المسلمين، ولنتحدث عن خاصتهم، فإن أخشى ما أخشاه على خاصة المسلمين أن يكونوا ـ بسبب ترفهم ـ قد تمسكوا من الدنيا بأسباب، وارتضوا ما فيها من المتع والشهوات، وأوغلوا فيها، لكن ليس برفق، وأحبوها حُبَّ من لا يستطيع فراقها، ويكره الانتقال عنها.

وتكثر اليوم ـ بسبب ما يجري في بعض ديار المسلمين ـ دعاوى الجهاد في سبيل الله تعالى، لكن السؤال الذي ينبغي أن يسأله كل منا نفسه: هل أنا حقّاً مستعد للجهاد؟! وهل إذا استنفرت لجهاد نفرت؟! وهل أعددت نفسي يوماً لحومة الوغى ولقاء الأعداء، وفراق الأهل والأصحاب والمال والشهوات؟!

إن أصحاب رسول الله ﷺ قد ضربوا أروع المثل في الجهاد، لكن قصة كعب بن مالك رضي الله عنه تملأ رأسي دويّاً إن قرأتها؛ كم منَّا مَنْ سيصنع ما صنع كعب رضي الله عنه من تباطؤ عن الجهاد حتى فاته في تبوك، هذا وهو من خيار المسلمين ومن أهل السبق فيهم؛ فماذا نقول نحن؟ وماذا سنفعل إذا نادى منادي الجهاد؟!

هذا، وقد كان مجتمع كعب مجتمعاً جهاديّاً محضاً؛ فماذا نقول عن مجتمعاتنا المتخمة بصور الترف اليوم؟ وكان كل ما يحيط بكعب رضي الله عنه يدعوه إلى الجهاد والخروج فماذا نقول عن اليوم وكل ما حولنا يدعونا إلى القعود والإخلاد إلى الأرض؟! اللهم غفراً، فإني أظن أننا ملأنا الأرض دعاوى لم توضع على محك ولم يختبر صدقها.

وبعض الدعاة والصالحين، بل كثير منهم، لم يتأهب بعد لقضية الجود بالنفس، والسماح بها عن طيب قلب، إن دعا لذلك داع، والتأهب هذا على قسمين: بدني ونفسي، أما البدني فمعلوم، وأما النفسي فأريد منه حديث النفس بالجهاد ورغبتها فيه وشوقها إليه، فمن منا قد أعد العدة، وتأهب على نحو ما ذكرت في بدنه ونفسه؟ هذا وقد قال ﷺ:

«**من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق**»[١].

أرأيت إلى قول النبي ﷺ: «**ولم يحدث به نفسه**»، فهذا الذي أعنيه من أمر التأهب النفسي، وهو على غاية من الأهمية، وهو المحرك الأكبر لقضية حب الموت والتضحية في سبيل الله، وهناك نفر كثير من الدعاة والصالحين إما أن يخرج للجهاد أو أن يعيش عيشة المترفين، وكأنه لا حل وسطاً هنالك، والذي ينبغي صنيعه هو إعداد النفس للجهاد والتهوين من شأن الموت، وعدم التعلق بالحياة، فإن نادى منادي الجهاد كنا أول الملبين، وإن حجب الله عنا الجهاد لحكمة كنا على الأقل متأهبين، قد أعددنا للأمر عدته، فلم نخلد إلى الأرض، ولم يغلبنا الترف.

هذا خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول لقائد الروم: «أتيناكم بقوم يحرصون على الموت كما تحرصون على الحياة»، وهذا سببٌ من أسباب انتصار المسلمين الأوائل.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ثوبان رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود في سننه: كتاب الملاحم: باب في تداعي الأمم على الإسلام، واللفظ لأحمد، والحديث صحيح. انظر: صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨١٠ للشيخ الألباني رحمه الله تعالى. **والتداعي**: الاجتماع ودعاء البعض بعضاً، وهذا حاصل اليوم، **والأكلة**: جمع آكل، **والغثاء**: ما يحمله السيل من زبد ووسخ، شبههم به لقلة شجاعتهم ودناءة قدرهم.

والنبي الأعظم ﷺ قد حدث بحديث بيَّن فيه ما آل إليه حالنا من التعلق بالدنيا وكراهية الموت، فقال ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**»، قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: «**أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن**»، قلنا: وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[١].

الأثر الثامن: ضعف في الجانب الإيماني:

والترف قد يؤدي إلى جملة من أمراض القلوب والجوارح، فإذا اجتمعت على المرء ذهبت بقوته، وأضعفت إيمانه، وربما أهلكته والعياذ بالله، فأصبح كآحاد الناس وعوامهم، ومثال ما يصيب القلب من أمراض بسبب الترف:

١ ـ ضعف الخشوع أو انعدامه.

٢ ـ قلة الورع أو انعدامه.

٣ ـ ضعف التلذذ بالعبادات والطاعات واستثقالها.

٤ ـ قسوة القلب ، وقلة تأثره بما يلقى عليه من المواعظ والتذكير.

٥ ـ ضعف أو انعدام عبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٦ ـ حسد الآخرين على ما وهبهم الله من نعم مادية ومعنوية.

إلى آخر ما هناك من أمراض قلبية يطول الكتاب جدّاً بتفصيلها، والوقوف على دقائقها، لكن حسبي التنبيه عليها؛ إذ كل منها يصلح أن يُفرد برسالة أو بكتاب.

ومثال القسم الآخر؛ وهو الأمراض التي تصيب الجوارح بسبب

الترف:

١ ـ الكسل والدعة والفتور.

٢ ـ عدم الحرص على الانتظام في أداء الصلوات في جماعة، خاصة أوقات البرد الشديد أو الحر الشديد.

٣ ـ عدم استطاعة تأدية صلاة الفجر.

٤ ـ قلة الاهتمام بصلاة الليل عامة، والوتر خاصة.

٥ ـ قلة أو ندرة ختم القرآن.

٦ ـ قلة الحرص على أذكار الصباح والمساء.

٧ ـ قلة صيام التطوع.

٨ ـ عدم المبادرة إلى فعل الخيرات ذوات النفع المتعدي؛ مثل الدعوة إلى الله تعالى، وبذل النصح، وإغاثة الملهوف، والوقوف على مشكلات الناس... إلخ.

وهي قائمة طويلة، تشمل عبادات مضيَّعة، وحقوقاً مُفَرَّطاً فيها، وإخلاداً إلى الأرض، وأكتفي بما أوردته مثالاً لما أغفلته، وليس المقام مقام الحديث عنها، إنما هي لوازم للترف غالباً، أسأل الله أن يحمينا مما هنالك، ويقينا شر تلك المهالك.

الأثر التاسع: ضعف في الجانب التربوي:

قد يورث الترف ألواناً من الضعف في التربية، والانغماس في أمور تنافي الجدية والانضباط، وقد بينت بعض ذلك في صلب الرسالة، لكن أُذكِّر ببعض العوارض الخطيرة، والأمراض الوبيلة، فمن ذلك:

١ ـ عدم الاكتراث بالدعوة إلى الله تعالى، وبذل المجهود فيها،

وضعف المداومة عليها.

٢ ـ قلة الاهتمام بأحوال المسلمين، والوقوف على أخبارهم ومشكلاتهم.

٣ ـ ضعف الارتباط بتكاليف العمل الدعوي.

٤ ـ ضعف القناعة بالسمت التربوي، وإبداء الضيق منه بدعوى التشدد والغلو.

٥ ـ قلة الالتفات إلى السنن النبوية، وضعف الأخذ بها وتطبيقها على النفس والأهل.

٦ ـ ضعف التمسك بالسنة في الهدي الظاهر.

٧ ـ كثرة النقد غير المبرر غالباً.

٨ ـ إثارة البلبلة في مجالات الأنشطة الإسلامية المختلفة؛ بسبب عدم قدرته على مجاراتها.

٩ ـ الجري وراء رخص العلماء وزلل الأقوال والأعمال.

١٠ ـ التساهل في النظر إلى العورات في وسائل الإعلام المختلفة من مقروء ومرئي.

وهذه أمثلة فقط، والقائمة طويلة يطول الكتاب بذكرها وتفصيلها، على أنه ليس هذا مكان ذلك، وإنما سقت أمثلة تستغني بذكرها عن التطويل والتفصيل فيها، وذكرها مجردة من التفصيل والتدليل قد يفيد في تذكير إخواني الدعاة والصالحين وطلبة العلم، وإيقاظ من غفل منهم أو استكان أو استنام؛ إذ كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً، والله الموفق.

المبحث الخامس
أنواع من الترف لها تعلق بموضوع الكتاب

قد ذكرت قبل هذا مباحث من الترف المتعلق بحاجات البدن وأحوال الإنسان المعيشية، لكن هناك أنواع من الترف تتعلق بالعقل الإنساني؛ وهي مؤثرة تأثيراً كبيراً في حياة متعاطيها وملابسيها، بل قد تفوق في بعض الأحوال ـ في تأثيرها ـ كل ما ذكرت سابقاً من مؤثرات الترف.

وهذه الأنواع هي: الترف الفكري، والثقافي، والعلمي، ولعل سائلاً أن يسأل: ما علاقة الترف الذي يدور معناه على التنعم والتوسع في ملاذ الدنيا مع ما ذكرت من الجوانب الفكرية والثقافية والعلمية؟

وأقول: إن هناك تعلقاً ما؛ حيث إنه من معاني الترف التوسع في ملاذ الدنيا، وليست الملاذ محصورة في شهوات البطن والفرج فقط، بل تتعدى ذلك إلى الجوانب الفكرية والثقافية والعلمية، بل إن من الناس ناساً يتنعمون ويتلذذون بطلب العلم والفكر والثقافة أكثر بكثير

(١) انظر: كتاب «القدوات الكبار بين التحطيم والانبهار» لكاتب هذه السطور، ففيه تفصيل لما أجملته هاهنا.

من تلذذهم بما ذكرته آنفاً، وبهذا الاعتبار أوردت هذا المبحث هنا، وأظن أنه في غاية الأهمية؛ وذلك لأن من يخوض في شهواته وملاذه الحسية من الدعاة والصالحين وطلبة العلم قد يدرك أنه مرتكبٌ أمراً يعود عليه بالضرر، لكن الخائض في الجوانب الفكرية الثقافية والعلمية خوضاً مترفاً قد لا يتنبه لخطورة ما هو عليه، ولا يدرك أنه أساء من حيث أراد الإحسان، وأنه من زمرة من يظنون أنهم يحسنون صنعاً، لكنهم في الحقيقة قد ضلوا الطريق وأخطؤوا السبيل؛ لذلك رأيت أن أنبه على المزالق في هذا الصنيع بإيجاز، وألفت الأنظار لآثاره السيئة على الدعاة والعمل الإسلامي؛ حتى نتجنب كل ذلك، ولا نقع في تلك المهالك، وننتقل من إضاعة الأوقات إلى صيانة الزمان، ونبتعد عن اللغو والهذيان، وتصبح حياتنا معمورة بالنافع من القول والعمل، والله الموفق.

أولاً: الترف الفكري:

المقصود بالترف الفكري: هو الخوض في مباحث وقضايا تتعلق بالفكر، ليس لها كبير تعلق بحياة الناس؛ خاصهم وعامهم، ولا تأثير لها في مجريات الأمور، ولا وزن لها في الآخرة، والخوض فيها مشغلة للناس أيما مشغلة، وتضييع لأوقاتهم، ومن الصور على هذه القضايا:

تقويم الناس والمفاضلة بينهم:

وهذا ليس للعموم، والتعلق به مشغلة وإضاعة وقت، ولعله يجرُّ إلى وزر والعياذ بالله، ويسوق إلى همٍّ، وشرح ذلك أمر يطول، وفيه تفصيلات لا مكان لعرضها هاهنا[1]، لكن الخائض فيه بغير حق إنما

هو مترف فكريّاً، وآت بما لا طائل تحته ولا جدوى وراءه.

الانشغال بالرد على كل الشبهات:

وهذا أيضاً من الترف الفكري، فالشبهات على الإسلام ودعوته من قبل أعدائه والمتربصين به كثيرة كثيرة، والتعلق بالرد عليها وتفنيدها كلها تضييع للزمان واستجابة وتنزل لأولئك الجاهلين، والعاقل هو الذي يعرف ما الذي ينبغي الرد عليه مما شاع ضرره، وكثر على ألسنة العوام نقله، لا أن يتلقف كل شبهة مهما ضعفت وتهافتت، أو مهما كانت معزولة في زوايا النسيان وركام الإهمال، فيجتذبها ويبرزها ويصورها على أنها مهمة من المهمات التي طرأت والنوازل التي ظهرت، ويعطيها فوق قدرها الضئيل، ويحيطها بهالات من التخويف والتهويل، فالعاقل هو الذي يوفر على الأمة وقتها، ويريحها من كثير من الأخذ والرد، والبلبلة والتوتر والشد، ولا يرد إلا بقدر على مشتهرات الشبهات، مما صار من الضرورة بمكان الرد عليه وتفنيده، وبيان تهافته وضعفه، وغير ذلك يُطوى ولا يُروَى، ويُهمل ولا يُذكر، ويتلف ولا يشهر، والزمان كفيل بذلك، والوقت أعظم من أن يُضيَّع في مثل تلك المسالك، والله الموفق.

ثانياً: الترف الثقافي:

والمقصود بالترف الثقافي هو التعلق بقضايا ثقافية ليس لها كبير علاقة بدعوة الدعاة، ولا تأثير لها على حياتهم، والخوض في مثل هذه القضايا يعد مضيعاً لأوقات الدعاة، وشاغلاً لهم عن قضاياهم أو بعضها، ومن الصور على هذه القضايا:

١ ـ تعلم لغة أجنبية بغير حاجة:

وهذا ترف بالنسبة لمن ليس له اختلاط بقوم يفتقر لمعرفة لغتهم، وليس لتعلم اللغات علاقة بحياته العملية الوظيفية، ولا بدراساته الحالية أو المستقبلية المتوقعة، ولا هو ممن يدرس أحوال الأقوام والشعوب وبيئاتهم وثقافتهم، فدراسة اللغة ممن هذا شأنه أخشى أن تكون ترفاً محضاً؛ حيث إن بعض الدعاة يتحمس في فورة ما لمثل هذا الأمر فينفق فيه شهوراً طويلة من عمره، ثم إذا ابتدأ يحسن فهم اللغة ويتعرف إليها انقطع عنها؛ لانشغاله وعدم تعلق حياته بها، فإذا به يضيعها، ويضيع معها الساعات الطويلة التي انشغل فيها باللغة وتعلقاتها.

وبعض الناس يحتج لتعلم اللغة بما سيفوته إذا أهمل تعلمها من متابعة وسائل الإعلام؛ خاصة الإنترنت، وأقول: إن تعلم الإنترنت وإحسان استعماله لا يحتاج لتعلم اللغة وإتقانها؛ إنما هو محتاج إلى دورة مركزة عملية في استخدام الإنترنت، ثم هو ليس بحاجة إلى معرفة اللغة بعد ذلك؛ إذ صفحات الإنترنت بالعربية قد بلغت من الكثرة والتنوع ما لم يعد المطلع عليها بحاجة لمعرفة لغة أجنبية بعد ذلك، وإن احتاج إلى اطلاع على شيء ما بلغة أجنبية استعان عليها بمن يتقنها، أما وسائل الإعلام الأخرى فهناك بدائل كثيرة ثرية، تغنيه عن الاطلاع على المواقع الأجنبية، والوقوف عليها بلغة القوم التي لا يحسنها، ويريد أن يتعلمها والوقت لا يسعفه؛ وذلك لأن الداعية يحتاج لمعرفة علوم دينه والمهمات من شرعه المطهر، ويحتاج إلى الاطلاع على ثقافات إسلامية وإنسانية؛ ليعرف واقعه، وهو مطالب بأن يعرف عدوه والمؤامرات التي يحيكها، وهو مطالب بإحسان تربية الأولاد وحسن معاشرة الزوجة، والقائمة التي يطالب بتحقيقها الداعية طويلة طويلة؛ فمتى يفرغ لها إن تفرغ لطلب تعلم لغة جديدة واستغرق

في ثقافتها وعلومها؟

٢ ـ التعلق بالإنترنت تعلقاً مبالغاً فيه:

الإنترنت نعمة من نعم الله تعالى على الدعاة في هذا العصر؛ إذ فتح لهم من الأبواب ما كان مغلقاً في وجوههم، وسهل لهم الاتصال ببعضهم بعضاً على وجه رائع، لكن قد تعلق بعض الدعاة بهذه الوسيلة تعلقاً أفضى بهم إلى الانشغال عن قدر ليس بالقليل من واجباتهم الدعوية، وارتقاءاتهم الإيمانية، وتطوعاتهم العبادية، ومن الترف الواضح في هذه القضية أن يظل الأخ الداعية ساعات طويلة يتنقل من موقع إلى موقع، لا لشيء إلا لتتبع الغرائب ـ وما أكثرها في صفحات الإنترنت ومواقعه ـ والسؤال عن العجائب، وإنزال هذه الغرائب والعجائب وطبعها وتوزيعها، أو إرسالها إلى الأحباب والأصحاب!

وبعض الدعاة يشارك في إعداد ملفات مطولة، أو ينفرد بإعدادها، وفائدتها محدودة، والذي أُنفق في إعدادها ساعات ثمينة طويلة، كان ينبغي إنفاقها في أمور أهم، وقضايا أكثر إلحاحاً مما تعلق به أولئك المتعلقون، وكان يمكن لصغار طلبة العلم وصغار الدعاة إعداد كثير مما يعده عدد من كبار الدعاة من ملفات وقضايا.

هذا عدا ما يمكن أن يجره الإنترنت على المتوغلين فيه من اطلاع على العورات ونظر إلى الحرام، وإيراد أمثلة على ذلك أمر يطول، لكنه واقع وقائم في الدعاة والصالحين وطلبة العلم بنسب متفاوتة.

خلاصة القول: إن الإنترنت ذو فائدة عظيمة لو أحسن استخدامه، واستخرج منه الدرر بأقل مجهود وضرر يعود على مستخدميه، وهناك

بعض الأخوة من الدعاة عملهم في الإنترنت جهاد وأيما جهاد، ومحاربة للمواقع الصهيونية والمتصهينة، فهؤلاء ليس لي معهم كلام، وأدعو الله تعالى أن يوفقهم؛ إنما حديثي موجه لمن أضاع أوقاته في ردهات الإنترنت بدون هدف صحيح منضبط. والله أعلم.

٣ ـ التعلق بالبرامج المستقبلة بالأطباق الفضائية:

وهذا التعلق مظهر واضح على الترف الثقافي؛ حيث نجد نفراً من الدعاة والصالحين وطلبة العلم بحجة البحث عن دقائق الأخبار والتحليلات، أو البحث عن البرامج الثقافية المتنوعة، تجدهم يتنقلون من قناة لأخرى، ويظلون ساعات طويلة ـ بسبب هذا ـ منقطعين إلى التلفاز، وقد يجرهم هذا إلى ما لا يحمد عقباه من النظر إلى العورات واستمراء ذلك واستسهاله، وفي هذا ما فيه من التأثير على إيمانيات الداعية، وتعلقه بتوافه الأمور وسفسافها.

والبحث عن الأخبار والتحليلات أمر مهم لنفر معين من إعلاميي الدعاة وسياسييهم خاصة، أما غيرهم فقد يكون مرجحاً في حقهم، لكن على أي حال فإنه ينبغي العناية بهذا الأمر، ووضع خطة له بحيث تُتجنب سلبيات وسوءات هذه البرامج، وتتم الاستفادة منها على هيئة مكتملة تامة.

٤ ـ التعلق بقضايا من الثقافة لا تعود على طالبها بفائدة:

وذلك نحو إدمان قراءة كتب الأدب الماجن، والغزل المكشوف،

---

(١) وهذا مثل كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» المنسوب لابن إياس الحنفي، وهو غير كتاب له آخر بالاسم نفسه، وهو كتاب تاريخي منضبط، أما الكتاب الأول فجُلُّه خرافات وأكاذيب.

وأخبار فلان وفلان من الممثلين والممثلات، والمغنين والمغنيات، الأحياء منهم والأموات، والتعلق بالأخبار التاريخية التي لا تخرج عن لغو القول وباطل الكلام، مثل أخبار ما وقع في الفتن بين السلف ﷺ، ومثل أخبار الأمم السالفة التي هي أشبه بالمستحيلات أو الخيال، وتتبع غرائب القصص وعجائب الأخبار، وممجوجات الوقائع[١]، فهذا كله تضييع للأوقات، وترف محض لا خير فيه.

ثالثاً: الترف العلمي:

والمقصود به هاهنا هو التعلق بدراسة بعض العلوم التي لا فائدة ـ مباشرة ـ تعود على الداعية من ورائها، والانشغال بها عن دعوته والإصلاح المبتغى المرجو، ولقد رأيت بعض الدعاة ممن تخصصوا في الدراسات العلمية التقنية أو المهنية، ولم يُحصِّلوا شهادات جامعية، رأيتهم يلتحقون بالجامعات في تخصصات لا تمت لحياتهم العملية بصلة، ولا تعود عليهم بفائدة كبيرة في حياتهم الدعوية، وذلك نحو التخصصات: علم الاجتماع، وعلم الإحصاء، والجغرافيا، والأدب الإنجليزي، إلى آخر هذه التخصصات التي ليس لمن التحق بها غالباً غرضٌ إلا الحصول على شهادة جامعية كيفما اتفق، وفي هذا تضييع لأوقات الدعاة الغالية، وغمساً لهم فيما لا يفيد دنيا ولا أخرى.

ومن صور الترف العلمي أيضاً: تعلم بعض الدعاة والصالحين ـ الذين ليسوا من طلبة العلم الشرعي وباعهم فيه قصير ـ فروعاً من

(١) انظر مثالاً: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للإمام اللالكائي رحمه الله تعالى.

علوم الشريعة لا صلة لهم بها حاضراً ولا مستقبلاً، وذلك كعلم أصول الفقه، وعكوفهم عليه شهوراً، ويدرسونه على مشايخ، ثم بعد الفراغ منه إذا بهم ينقطعون عنه، وهذا أمر متوقع؛ إذ لا تعلق لهم به في حياتهم العملية الوظيفية، ولا نية لهم في تدريسه، ولا يواصلون في دراسة علوم تتعلق به، فتتصل دراستهم على وجه نافع مفيد، نعم، إن علم أصول الفقه مفيد لكثير من طلبة العلم، لكن ما حاجة من ذكرتهم إليه وهم بعد لم يندرجوا في طلب العلم، ولم يتعلموا مهمات من العلوم قبل هذا العلم؟!

ومن صور الترف العلمي: تحكيم المباحث الفلسفية في العقائد الإسلامية، وهذا الفعل صار غالباً على كتب عقائد المتوسطين والمتأخرين، فصار الطالب لعلم ما في تلك الكتب محتاجاً لشيخ مجيد متقن، ذي اطلاع واسع، وفهم ثاقب؛ حتى يقرأ عليه ما أشكل فيه، وهو كثير، بينما ينبغي أن يكون الأصل في تلك الكتب العقدية السهولة واليسر والسلاسة، فالعقيدة الإسلامية من مزاياها الوضوح، والبعد عن التعقيد اللفظي والمعنوي، وعلى ذلك المنهج كانت كتب السلف في العقيدة، فهي مليئة بالآيات والأحاديث والآثار[1]، ويقل فيها جدّاً أو يندر التعقيدات اللفظية والمباحث الكلامية الفلسفية، ومن اطلع اطلاعاً واسعاً على كتب من جاء بعد الحقبة السلفية والقرون الثلاثة المباركة عرف ما أعنيه وأريده، وعانى طويلاً في فهم ما يريده المصنف وما يرومه، وظل متخبطاً في مسالك ودروب لا تعود عليه بالفائدة المرجوة في دينه ودنياه؛ أليس المقصود من كتب العقيدة أن تُعرِّف المرء بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر

خيره وشره، على الوجه الذي يترك أثراً في النفوس، وعملاً صالحاً في الجوارح؟ فأنا أجزم إذاً بأن الاطلاع على تلك الكتب لا يسمن ولا يغني من جوع في هذا، ولا يعود على القارئ بالأثر المحمود المطلوب، وتعلمه ترف علمي محض، ليس الطالب بمطالب به، وليس هو من علوم الآخرة الفاخرة، والله أعلم.

ومن صور الترف العلمي: التعلق بغرائب اللغة، وما لم يعد مستعملاً من المفردات، وما صار مهجوراً مسترذلاً مستشنعاً سماعه وتداوله من الألفاظ، والإقبال على كل ذلك تعلماً وتعليماً، وإنفاق الساعات الطوال والغاليات في فهمه وحفظه وسرده، وهذا كله وأمثاله ـ مما لا يعود على الأمة بخير ـ هو ترف محضٌ، وتكثرٌ وتقعر ينأى بنفسه عنه العاقل اللبيب، والفطن الأريب.

خاتمة واقتراحات

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلقد طوفت في مباحث متنوعة، وغصت في طلب معانٍ عميقة، وحاولت أن أستوفي الكلام عن هذه القضية المهمة، لكن هيهات هيهات، فإن الحديث عنها لا ينقطع، ومهما حاولت الحصر والجمع فلن أفلح إلا في إبراز جوانب والغفلة عن أخرى، وحسبي ما ذكرت مذكراً ونافعاً لي ولإخواني وأخواتي، ومما أقترحه في هذه الخاتمة ما يلي:

١ ـ ألا يكون الكتاب قد قرئ على وجه التسلية وقضاء الأوقات، بل أرجو أن يستفاد منه في تفادي الوقوع في الترف، أو البحث عن كيفية النجاة لمن غرق في بحره، وهذا دأب المؤمن، وديدن العاقل أن يستفيد دوماً مما يقرأ.

٢ ـ قراءة هذا الكتاب قراءة متأنية فاحصة على النشء الصاعد، فعلى القائمين على الشباب والفتيات في المراكز القرآنية والصيفية والدائمة، وعلى المعلمين والمعلمات في المدارس أن ينشِّئوا من هم قائمون عليهم على مثل هذه المعاني الواردة في هذا الكتاب وعلى غيرها، مما يستنبطونه أثناء رعاية أولئك، والقيام على شؤونهم،

وأحسب أن قراءة هذا الكتاب وأمثاله على أولئك يحصل بها نوع فائدة إن شاء الله تعالى.

٣ ـ حبذا لو قام الخطباء والوعاظ في المساجد ومجامع الناس بإلقاء شيء مما ورد في هذا الكتاب على مسامع الناس، وتخير ما هو مناسب للعوام، أو التحوير ليناسبهم، فيلقى عليهم، فإني قد كتبت هذا الكتاب موجِّهاً حديثي إلى الطائفة العاملة الداعية إلى الله تعالى، لكن لا مانع من إلقاء بعض مباحثه على الجمهور؛ حتى تعم الفائدة به إن شاء الله تعالى.

٤ ـ هناك بعض الأمثلة التي سُقتها من حال السلف؛ وهي أمثلة رائعة، لكني أعلم أن الأخذ بها في هذا العصر قد يكون صعباً أو مفضولاً، لكن إيرادها فيه خير كبير، والاستفادة العملية مما يمكن الإفادة منه مطمح راقٍ وأمر جليل، عسى أن يتمكن منه إخواني وأخواتي ممن قرؤوا هذا الكتاب، ولا ينبغي أن يحبطوا أو ييأسوا عندما يقارنون أحوالهم بأحوال أصحاب الأمثلة المذكورة، بل ليتخذوها مطية لتعديل أحوالهم بما يمكن الوصول إليه من مراقي المعالي.

وأخيراً: أذكر إخواني وأخواتي ونفسي أولاً قبل كل أحد أنه لن ينالنا الفلاح، ولن تفسح لنا الأمم مكان الصدارة والريادة، ولن نصل إلى ما نتمناه إلا بتوفيق الله تعالى وإرادته، ثم بالبعد عن الترف المهلك والمقعد عن المعالي، لا بد أن يفهم هذا العاملون ويعيه الدعاة على اختلاف مشاربهم ومناهجهم، والله الموفق، وبيده مفاتيح كل شيء، جل جلاله.

هذا، والله تعالى أعلم وأحكم، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١ ـ «**الذين لم يتزوجوا من العلماء وغيرهم، وأسباب ذلك، والنقض على من وحَّد السبب**»: بكر أبو زيد، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ.

٢ ـ «**آفات على الطريق**»: د. السيد محمد نوح، دار الوفاء، المنصورة، ط٩، ١٤١٤هـ.

٣ ـ «**الأعلام**»: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠م.

٤ ـ «**إتمام الأعلام**»: د. نزار أباظة ومحمد رياض المالح، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٥ ـ «**أسباب سقوط الأندلس الاجتماعية والاقتصادية**»: بحث للدكتور محمد رضوان الداية ومهجة الباشا، مجلة «**بحوث جامعة حلب**»، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد العاشر، ١٩٥٧م.

٦ ـ «**الإسلام ومشكلات الحضارة**»: سيد قطب (ت: ١٣٨٦هـ)، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط٥، ١٤٠٣هـ.

٧ ـ «**تاج العروس من جواهر القاموس**»: الزبيدي (ت: ١٢٠٥هـ) محمد مرتضى، تحقيق مجموعة من الأساتذة، مطبعة الكويت.

٨ ـ تفسير القرآن العظيم: الحافظ ابن كثير إسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار الشعب، القاهرة.

٩ ـ «**تقريب التهذيب**»: الحافظ ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: الأستاذ محمد عوامة، دار الرشيد، حلب، ط١.

١٠ ـ «**التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس**»: د. عبد الحليم عويس، بحث منشور في كتاب الذكرى الخمسمئة لسقوط غرناطة ١٤٩٢هـ ـ ١٩٩٢م، الجزء الثاني، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسيكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، ١٩٩٣م.

١١ ـ «**خلق ودين**»: د. إبراهيم سلامة، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ط١.

١٢ ـ سنن الترمذي: أبو عيسى محمد بن سَوْرة (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٣ ـ «**شوقي ضيف؛ سيرة وتحية**»: إشراف وتقديم: د. طه وادي، دار المعارف، مصر.

١٤ ـ صحيح البخاري.

١٥ ـ صحيح مسلم.

١٦ ـ «**صلاح الأمة في علو الهمة**»: د. سيد بن حسين العفاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

١٧ ـ «**صيد الخاطر**»: ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: ناجي الطنطاوي وعلي الطنطاوي، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٣٩٩.

١٨ ـ «**فتح الباري شرح صحيح البخاري**»: ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (ت: ٨٥٢هـ)، ضبط عدد من الأساتذة، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٨هـ.

١٩ ـ «**الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**»: أحمد بن عبد الرحمن البنا، دار الشهاب، القاهرة.

٢٠ ـ «**فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة**»: د. محمد إبراهيم، معهد المخطوطات العربية، ط١، الكويت، ١٤٠٦هـ.

٢١ ـ «**في ظلال القرآن**»: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط١١، ١٤٠٢هـ.

٢٢ ـ «**قمع الحرص بالزهد والقناعة، ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة**»: الإمام القرطبي محمد بن أحمد (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: مجدي السيد، دار الصحابة، طنطا، ط١، ١٤٠٩هـ.

٢٣ ـ «**لسان العرب**»: ابن منظور الإفريقي محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت.

٢٤ ـ «**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**»: أبو الحسن الندوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٦، ١٣٨٥هـ.

٢٥ ـ مجلة الأزهر: تصدر عن مشيخة الجامع الأزهر، مصر.

٢٦ ـ مجلة الرسالة: مجلة ثقافية أدبية، كانت تصدر في مصر ثم توقفت.